منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
منشورات ضفاف
Editions Difaf

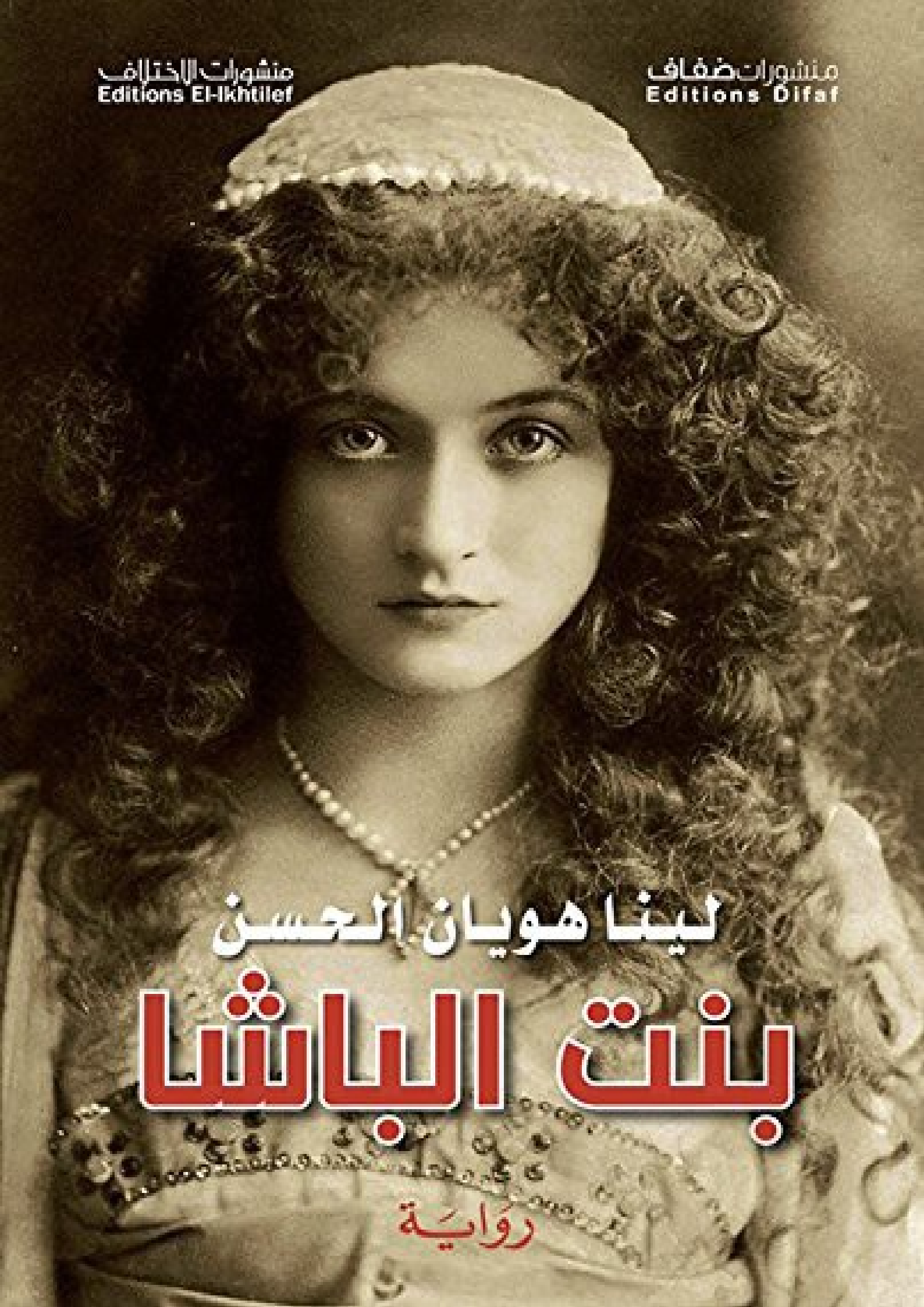

لينا هويان الحسن

بنت الباشا

رواية

بنت الباشا

طبع في لبنان

بنت الباشا

رواية

لينا هويان الحسن

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-02-4178-7

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

تُشير سجلاّت وزارة الداخلية السورية إلى أنّ أوّل امرأة حصلت على إجازة سوق هي من مواليد 1/1/1904 دمشق - مهاجرين، التي نالت إجازة القيادة في عام 1929 شهادة رقم 172.

بطلة هذه الرواية غالبا كانت شهادة سوقها رقم 177.

تنويه

«نَسْليهان» التي ربتها قهرمانة من الصابئة، وولدتها «فيرلان» المختطفة من مستعمرة برتغالية على أحد شواطئ الهند، نسليهان التي شاركت في مظاهرة 1927 في ساحة المرجة للمطالبة بحق رفع الحجاب، هي «امرأة» من نسج الخيال، وأي تشابه مع الواقع هو محض مصادفة مع قصص تتطاير في كل الجهات، ثم تلتئم، متنكرة في عشرات الهيئات الجديدة.

إهداء

إلى السيدة «نَسْليهان أ. ل.» التي روت لي حكاية جدتها الكورجية - أي الجورجية- والتي استعرتُ منها اسمها التركي الذي يعني «الشرفاء الذين من نسل السلاطين».

لعل ملامح «بنت الباشا» تشكلت وأنا أتتبع إصبعكِ النحيل، الذي يختزل تاريخاً عريقاً من الأرستقراطية الدمشقية، قبيل أن تتداعى أو تحتضر. بشغفٍ كبير التهمت عيناي ألبوم صور عائلتك الفريدة.

لا يمكن للنسيان أن ينزع صوتك المرتجف وأنتِ تشيرين إلى الوجوه المطمئنة في تلك الصور، تحاولين تذكّر الأسماء؛ لأنك تعلمين أنّ الوجوه لا تكتسب حضورها دون الأسماء.

كيف لي أن أتجنّب إغواء صوتك فيما كنت تمنحين كلّ اسم حكايته؟ كان الأهم من تذكّر الأسماء، تذكر ما حدث لكلِّ وجه.

اجتمعت في صورة واحدة، كل ديانات دمشق: المسلمة والمسيحية واليهودية، أطلَّت من إحدى الصور وجوه متألقة لشابات دمشقيات، يحتفلن بالكريسماس، كانت أسماؤهن تخرج من فم السيدة نسليهان: «فاطمة، تامارا، ماري، فخريّة، لطفية، يلديز..» تلك هي دمشق، مدينة الجميع.

ليس إهداءً، إنما امتنان لكل تلك القهوة التي حضرتها لنا «ل»، في صيف 2003 في تلك الباحة المظللة بشجر الليمون، في المنزل الدمشقي العبق للست ناسلي، الكائن في طالع الفضة. أزعم أني حاولت تطويع اللغة لأكتب أكثر من سيرة في هذه السردية.

باعتبار الكتابة كما أعلن سقراط ذات يوم «شراب نسيان»، لا يحقُّ لنا كتابة كل شيء، فهنالك أشياء ستفلت من التدوين بخفة السحرة، وتزوغ من أبواب خفية، لتكون بحد ذاتها حكايات أخرى.. جديدة

(.. نرى قسماً من بناتنا، إفرنسيات وعدداً إنكليزيات وبعضاً أميركيات وروسيات وبروسيات، ولهذا اختلفت مبادئ بنات الوطن الواحد وتربيتهن، أو بالأحرى قل تباينت المعتقدات والتقليدات..).

ماري عجمي،

العدد الأول من مجلة العروس،

يناير 1912.

(1)

"لا يعني الزي شيئاً إذا لم يوحِ للرجال بنزعه من عليكِ".

فرانسواز ساغان

يمكن تخيل لأي حدٍّ كان صاحب العطوفة «ناظم بيك» طائش اللبّ، في ذلك المساء الذي ذاع صيته سرّا، تناقلته الألسن بشهية كبيرة. كان مثل كلب صيد خرج من وجاره للتو. لم يكن لأي أحدٍ أن يخمن ما قد يقدم عليه رجل غاضب، هل كان عاشقاً مهتاجاً؟

كانت نَسْليهان، قد وصلت للتو إلى دار عمّها، المكان مزين ومهيأ على أحسن وجه لاستقبال الحاجين القادمين.

عندما ذهب عمها وزوجه لتأدية مناسك الحج، أصبح المنزل أكثر غواية لتجمع الفتيات، يمكنهن تدخين تلك السجائر الرفيعة التي وصلت لأيدي نسليهان قادمةً من لندن، ليستمتعن بابتكار مستر «مارلبورو» الذي صَنَعَ أوّل سيجارة رفيعة لنساء الصفوة، ووضع ذلك الشريط الأحمر الدقيق على نهاية السيجارة لإخفاء آثار أحمر الشفاه الذي غدت كل النساء معتادات على صبغ شفاههن به. بسرعة حظيت نسليهان بسجائره تلك لتوزّعها على الصديقات.

تلك الليلة كانت نسليهان، أو ناسلي، كما كان يدعوها المحيطون بها، تحمل أيضاً عبوة أحمر شفاه وصلتها حديثاً، عبر ناستيا أورلوفا، أحضرتها معها بنيّة تجربة اللون على شفاههن قبل أن يتحلّقن حول الورق ليلعبن البوكر بحماس، وليتأجج انفعالهن بعد شرب الكونياك، الذي كان يصل دمشق آنذاك من مدينة خيريز الإسبانية.

كان المنزل يفوح برائحة الحلويات والطبخ، حيث لم تدخر خادمات المنزل جهداً لإسعاد الأوانس الشابات.

بالكاد وصلت نَسْليهان، وولجت الغرفة الواسعة حيث الأرائك المنجدة بالمخامل والمناضد المزدانة بالفاكهة، والعصائر، والمخبوزات المحلاة بالعسل. كانت قد أخرجت علبة السجائر وبدأت بتوزيع السجائر، عندما فُتح الباب على مصراعيه ودخل ناظم بيك

كوحش بري. سألها شيئاً واحداً، ولم ينتظر أيّ إجابة: «يوسف اليهودي؟ أها!».

دفع شقيقاته بعنف للخروج من الغرفة وأغلق الباب بالمزلاج.

في ذلك المساء العاصف، كانت ناسلي قد نضت عنها للتو ملاءتها السوداء لتكشف عن الفستان الأكثر جمالاً، والذي يحمل رائحة أهم نساء العائلة، «فخر الموقرات المصون توركان خاتون»، فستان «النيلوفر الملكي»، عندما مزّقه ابن عمها، وتركه نتفاً، مثلما فعل بكبريائها وكرامتها، لم يلمسها، إنما مزّق الثوب الملكي، وتركها شبه عارية. لم تهدأ طَرَقات الشقيقات العنيفة، التي ازدادت عندما انضمّ إليهن كلّ من في البيت. لم يكن بالإمكان إخفاء الكثير من جسد عارٍ وبض وممتلئ كجسد ناسلي، لحظات قليلة نظر إليها، وخرج كريح عاصفة، فتح الباب وغادر المنزل وهو يحمل عبء اشتهائه المكتوم.

لم يغلق الباب خلفه، كان يريد إهانتها بأقصى ما يستطيع، تركها لتعيش شعور محكوم بالإعدام، لم يعد أي شيء يعنيه، لأن دوره في الموت قد حان.

يعلم صاحب العطوفة ناطم بيك أن أحداً لن يجرؤ على إخبار أبويه بما جرى، ولا حتى عمّه الباشا. كان متأكداً أن ثرثرات الخدم ستتكفل بنشر ما حدث، لن تحظى نسليهان بنت الباشا بأيِّ عريس بعد تلك الحادثة التي سرت في بيوتات دمشق كإشاعة مغوية، ومؤكدة، لا يرغب أحد بإنكارها، الجميع يريد تصديقها، الكلّ يريد تخيّل وجهها الفاتن الذي ضاعفت جماله الشائعات، مضرجاً بحمرة الخجل، والمهانة.. مزقوها بألسنتهم، قضموها بتخيلاتهم، مُزّق ثوبها لترتدي شرنقة مُحاكة مما قيل عنها، لم تعد تفيض الألسن إلا بتلك السيرة.

كل الكلاب الضالة نبحت في تلك الليلة، نبحت ضد النجوم، ضد القمر، ضد حفيف أشجار الصفصاف على ضفاف بردى، بينما ناسلي تملكها ذلك الاحساس الصعب بأنه لايوجد إلا شيء واحد في الكون: «غضبها».

* * *

أن تكون «محيّراً» لمن حولك، كان خياراً دقيقاً من قبل نسليهان، الأنيقة، المهذبة، المنمقة، كما تبدو للآخرين. هل كانت خيّرة أم شريرة، أم الاثنين معاً؟ كانت خلطة غامضة.

لم تكن شريرة دائماً بحيث يدينها الجميع، ولم تكن تجنح صوب

السلم، ليرضى عنها الكل.

كانت تمتلك ذلك الغموض الذي يمكن أن يسلك مختلف الجهات.

تنظر ناسلي في مرآتها، تمشط شعرها وهي تقول ليوسف الذي يجلس على أريكة «أبيسون» في غرفة نومها: «ملامحنا، حديقتنا التي علينا أن نغطيها بتربة كريمة، ونعشّبها، ونسقيها صباح كل يوم، أيضاً علينا أن نقول لها كلمات حب، لن تحبنا الحياة إذا لم نتقن عشق أنفسنا».

تضع فرشاة الشعر جانباً وتتناول أحمر الشفاه، تمرّره ببطء وهي تقول: «لأنني في يقظتي كنت كما في حلمي، أحب نفسي. كل يوم أغرق في مياهي العميقة، أن نحب أنفسنا، يعني ذلك أننا نمتلك موهبة إلهية في معرفة قبحنا قبل جمالنا. أن نلاحق عيوبنا المنعكسة على صفحة ماء الغرور، أن لانتجاهل ذذلك الشيطان الجميل الذي يغرينا بالغرور، بالتكبر. أقدس الغرور، أتعرف لماذا؟ حتى لا أكون من أولئك الممسوسين بلعنة إرضاء الجميع، ونيل رضاهم وموافقتهم. هل تعتقد أن ثمة من سيوافق على أن تقضم تفاحة الحياة كاملة؟ بلى، الحياة تفاحة، الحياة خطيئة، أجمل ما حدث للبشر خطيئتهم تلك، وأهم مايمكن أن تفعله في هذه الحياة القصيرة أن لا تسمح للشيطان أن يختار صفَّ أعدائك».

*** * ***

ما زال هناك القمر الذي يتذكّره الجميع في لحظة مولدها. يومها كان القمر متوهجاً مثل وحش مضطرب بعيد، ليلة الثالث عشر من شهر آب عام 1901.

كان البدر الأسطع نوراً والأكبر حجماً في واحدة من الظواهر القمرية النادرة، على امتداد سهوب البادية المحيطة بدمشق.

كان يسطع مهيّجاً أعراف الخيول العداءة، والريح مجنونة تقتلع الهدوء من قلب البشر، تهدد طمأنينة سماء واسعة، كأن كل شيء على الأرض يحاول مجاراة قدرات القمر الفائقة بسطوعه المخيف، بجماله الاستثنائي المتسرّب بين الأخاديد والصخور والسحب، كأنها مولودة من حطام ضوئه على الأرض. لحظة ينحدر الضوء بين الفانين، كأنه أراد أن يكون محسوساً ومقيماً وحميماً في كنف توحش تلك الليلة. امتزجت حسرات النساء في صوت ناحب، نادب واحد: «ماتت الشريفة والنفيسة توركان خاتون».

حالما وِلدتْ «ناسلي»، ماتت غريمة أمها، دفنها ضوء ذلك القمر.

تلك الظاهرة التي يسميها المتشائمون لعنة الحضيض، حيث تلك اللحظات القمرية التي فيها تهيج البحار وتجنح السفن وتحدث الهزات الأرضية والفيضانات، وكأن الأرض محشورة في شيء خارج سياق الزمان والمكان.

تلك الليلة، اختنقت السماء، انفجرت غضباً، تجهمت، أرعدت، أبرقت، أمطرت. كانت الطفلة الوليدة قد صرخت صرخاتها الأولى.

أخيراً تسلّلت نجمة الصبح وسط همهمة الريح التي بدأت تهدأ. صمتت السماء، سكنت العاصفة، ماتت الخانم الكبيرة، توركان، الجدّة التي لم يكتب لنسليهان رؤيتها، لكنها ارتدت كل ملابسها، قفازاتها، أحذيتها، وفستان «النيلوفر الملكي».

*** * ***

كانت تقول القهرمانة «آسيا»: «كل إنسان يملك طالعه، خارطة، فوق رأسه». أينما تجولنا، السماء ذاتها: بنجومها، كواكبها، مجراتها، نيازكها.. كانت تقرأ السماء كما لو أنها تقرأ كتاباً كلماته واضحة.

تعتقد الحبّوبة آسيا بتأثيرات الفلك، بينما والدة ناسلي، «فرلان خانم»، كانت تعتقد بقدرات السحر الذي ورثته عن أهلها في الهند، قبل أن تنتزعها يد الراهبات في ذلك الدير الصغير على شاطئ البحر حيث مستعمرة برتغالية صغيرة، رافقتها بعثة تبشيرية نشيطة ودؤوبة.

نظرت القهرمانة العجوز، آسيا، عرّافة القصر، في وجه الطفلة، قرّبته إلى الضوء المرتعش ونظرت إلى قبة السماء. كانت وجهاً لوجه مع القمر الذي يكتسح ضوؤه النافذة.

قالت آسيا: «ستكون شريرة بعض الشيء»، بينما همست الخادمة بحري: «طفلة جميلة ستشبه ستّنا توركان خاتون».

لم تعش فرلان لحظة الافتتان أمام المولود الذكر. أدركت أنها لن تكون الأم المحظوظة بمولود ذكر، بحيث تكشف عن عضوه الصغير بفخر لزائراتها.

*** * ***

بعد سنوات طويلة قالت نسليهان ليوسف:

«تعرف، من أقتلهم لا يحملون في توابيت، إنما تُحمل توابيتهم فارغةً منهم».

بهدوء قالت نسليهان للرجل الذي يجهله الجميع، البعض يخمّن من هو، لكن ليس هنالك شيء أكيد بخصوصه: «أنا أضجرك، أروي التعاليم نفسها. هل تعلم ما طول الطرقات التي مشيتها والدروب التي شققتها حتى أصبح لديَّ تعاليم؟ كم تعذبت حتى عرفت أننا نشاهد الأشياء لكننا لا نرى؟ نسمع لكننا لا نصغي؟ كل شيءٍ حولنا يتمتم ويريد أن يقول شيئاً».

تغادر مرآتها وتجلس إلى جواره، تتناول فنجان قهوتها، تقول ببطء من ينتقي كلماته:

«هل ترى هذه الغيمة التي تعبر السماء الآن ونراها من النافذة؟ ثمة رسالة تقولها، وهذا العصفور الذي ينقر تربة الزهرة، في فمه كلام، وهذه الزهرة لديها ما تخبرنا به.

هل تعلم كم مرة تألمت؟ حتى أدركت أن من يخاف من الحياة لا يولد أبداً؟

كم مرة زأرت كوحش بري بسبب الحزن؟ حتى تعلّمت كيف عليّ أن أمتلك نافذة سريّة ومفتوحة للهرب؟! هل تعلم

أن الذين يريدون المحافظة على لقب «شجاع» يموتون باكراً، وأولئك الشجعان لمرات قليلة وجبناء معظم الوقت هم الذين ينجون!

لأن الاعتراف بشرورنا أمر أسمى بكثير من التشدق والتباهي بخيرنا، عشت.

قد تعتقد أنها خدعة مثيرة، واحدة من خدعي الكثيرة.

هم قالوا عني: مخادعة، وأنت، أنت لذت بالصمت، صمتك الشهير. تعرف كم أضناني صمتك.

لعل صمتي الطويل شفاني قليلا من صمتك الذي جرحني ذات يوم.

عندما أدركت أني لا أستطيع قول شيء أغلقت فمي. هكذا فهمت سرّ صمتك.

مرّ وقت طويل وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة: إنها نسليهان بنت الباشا! حاولت سبر أغوارها حتى النواة، حفرت نسغها، قلبت أمعاءها، وأخيرا تجرأت وشرّحت قلبها، قلبها الخؤون، المتشعب، المتعدد، تماما كما عقلها، كما حياتها، وكما ميتاتها.

وحدك عرفت من اللحظة الأولى أنّ ناسلي كثّرت ميتاتها لتحيا حياة واحدة، ولتعيش تلك الحياة.

لم يعد الآن بإمكان الحبوبة «آسيا» أن تروي لنا حكاية المرات الثلاثمئة وستين التي تعمدتها في مياه نهر الفرات، لتحظى بالرجل الذي تحبه، ولأن الخادمة الزنجية «بحري» لم يعد بإمكانها أن تروي تفاصيل رحلتها المثيرة من أواسط أفريقيا، من مملكة «البرنو»، إلى دمشق، ولأن أمي «فرلان» لا تستطيع الآن التحدث عن رحلتها كعبدة من مستعمرة برتغالية على شاطئ هندي إلى سرداب النخاس. سأروي لك تلك الحكايا التي لن تتكرر، ربما أكتبها مرفقة بتلك التعزيمات السحرية التي تمنح الورق سلطة مفتوحة. أه .. لا لا، لا أعتقد أن السحر يدفع للكتابة، إنه ذلك الشيء الوحشي، الضار، الذي يضغط عليك، يلغي إحساسك بالواقع، وبمن حولك، لأنه لا يستطيع الانتظار، يجعلك مختلاً، إن لم تدونه، إن لم تكتبه، أو تسوّ مشكلتك معه، إنه شيء يجعلك معذوراً ومبررا، ومقبولا إذا ما ارتكبت الخيانة. كيف ننكر فوضانا وتشوشنا، كيف ننعش ذلك الشيء الذي يذوي فينا دون أن نجازف بخيانة أحدهم؟!.

تصمت، تتعمد تجنب النظر إلى عينيه، تعلم أيّ المفردات التي تستفزه، رغم ذلك تستخدمها في كلامها، على نحوٍ مباغت كما لو أن المعجم خلا من اللغة كلها لصالح استخدام كلماتٍ بعينها، ناسلي التي تعلم أن الحب لا يتطلب طيبة القلب، إنما انفجاره، واضطرابه الساحق الذي يدمر كل ما حوله لأجل نفسه. تتابع حديثها:

«قهرمانة القصر «آسيا» أو كما تعودت أن أدعوها: «الحبوبة»، كانت تسمّي مشيتي بالمدغدغة، وعندما أسألها: كيف؟!

كانت تقول إني لا أمشي على وتيرة واحدة؛ أحيانا أبدو حازمة، ثم ما ألبث أن أتراخى.

يمكنها أن تصف كلّ الطرق التي يمكن للنساء أن تتحرك فيها، لديها معجم لا حصر له من طرق المشيات.

بينما الدادا «بحري» تؤكد لي في ما يشبه النصيحة:

«يسهل على المرأة الجميلة لفت الأنظار، لكن لا ينبغي عليها الاكتفاء بذلك، عليها أن تثير الشكوك والأسئلة، أن تبث الخوف في قلب الرجل الذي تودّ المحافظة عليه طويلاً».

كانت الحبوبة آسيا سيّدة ذكيّة، خبيرة بكل الأشكال والهيئات التي يمكن أن تبدو عليها النساء، فقد قضت ثلاثين عاماً من حياتها مهمتها انتقاء الجواري، لأب-ي.

تركّز في اختياراتها على الكتفين الممحوين، والصدر المربرب المطلّ على بطن مقلّص، وتهتم كثيراً بأعلى الجسد المائل إلى الخلف والذي يدلّ على شمم أرستقراطي.

بعينيها تقيس عرض الكتفين وانحراف الأضلاع ورهافة الخصر.

على اليد أن تكون: «دقيقة عند الرسغ تمتلئ صعوداً، وعند الذراعين يجب أن يكون اللحم وفيراً».

تكره النساء المتهورات، كانت تكشف أية امرأة من خلال طريقة ملامستها للأشياء.

المرأة الذكية هي التي تتمهل بلمسِ كلّ ما حولها، أي تجسّ الأشياء التي تلمسها جسّاً خفيفاً، عليها أنَ تكون كذلك، عندما تأكل وتتناول فنجان قهوتها، وترتدي ثيابها.

كانت تكره النساء العجولات، حتى لو كنّ جميلات المظهر، وطوال مدة خدمتها في حرملك أب-ي لم تسمح لأي منهن بدخوله.

هنالك أنحاء في جسد المرأة لن تنجو من فحص الحبوبة، كالإبط، والأذنين، فتحة الفرج، تجويفة المؤخرة.

كانت تشرف على طعامهن الذي كان يخلو من الثوم والبصل والبهارات، فقط الملح مسموح، وذلك ضماناً لأنفاسهن العطرة.

لم يكن يفوتها التركيز على «منحنيات الحوض، وتقويسات الظهر، والتواءات الأضلاع».

تكره بنات عمي لأسبابها الخاصة، كانت تقول: جدة ابنة عمك «نورجيهان» مغولية. لم يحدث وأن رأيتِ» يلديز» المغولية، نظراتها مثل رشقات، مصوبة وموجهة إلى شيء ما دائما.

لم تكن الحبوبة آسيا، تُظهر أيّة صعوبة في توصيف السمات الدقيقة للجمال، تجد تشبيها مثيرا لكل تضاريس الجسد، لكنها تُظهر

بخاصة التركيز على بعض السمات دون غيرها.

يأتي الوجه أولاً. لديها قواعد، فالخصر، يكشف ويؤسس للجمال العلوي الذي يدل على طريقة المشي والتحرك.

علينا أن نحافظ على وزن أبداننا، أي النحول الذي يميل إلى الربربة، في أجزاء معينة، أما الورك والردفان فهنا الإقليم الذي تركز على فحصه الحبوبة، تتمعن بانحناءات الحوض، ذلك ينبئ عن خصوبة المرأة وقدرتها على الإنجاب في وقت متأخر.

تؤمن الحبوبة بتأثير الأفلاك علينا، يمكنها في كل ليلة أن تقرأ واحدة من تلك الإشارات المودعة في السماء.

فالمكان الذي تتلألأ فيه نجمة، يؤثر على آدمي يولد في تلك اللحظة من بطن أمه.

تولي عناية كبيرة لتلك العلاقة المتخيلة بين الجسد والكواكب والأبراج، بسبب خوفها الكبير من القوى الخفيّة التي يمكن أن تؤذي الجسد، القوى الخفيّة الشريرة اللا مرئية.

حالما وصلت «فرلان» الحرملك، أعلنت آسيا عن مكامن الجمال في القادمة الجديدة: «لا يمكن للبصر إلا أن يتوقف عند المنظر الجانبـي لعنقها». آسيا أعلنت أن كتفيها وجيدها رائعان.

تقول نسليهان ليوسف:

«يا حبّي، كنت تقول عني «حكواتية». نعم أنا كذلك، وإذا عُرف السبب بَطل العجب، ربما تكون قد سمعت عن النسوة اللواتي تولين تربيتي والعناية بـي، أنا التي حظيت بأمهات ثلاث تقريباً.. هذا قبل أن تأتي «ناستيا»، أتعلم؟ قالوا عن أنستازيا أورلوفا إنها لم تكن بارونة قط كما زعمت، لكن وحدي أصدق، لماذا؟ لأنها كانت تلمس الأشياء كما تفعل الأميرات، لو رأيتها وهي تصب الشاي في كوبها، وهي تتناول طعامها. لم تكن تأكل بالشوكة والسكين، إنما حقيقة كانت تعزف في صحنها لتأكل. عادة تكره النساء امرأة بعينها، ربما يكون السبب فقط لأنها تمشي كظبية، أو تتلفت على نحو أنيق، أو تتكلم بالصوت الخافت الذكي، نعم كانت الحبوبة آسيا تقول ما يشبه قانوناً لا يقبل الجدال. ليست هنالك امرأة ذكية تتكلم بصوت عالٍ، الذكيات، اللعوبات، الموهوبات يتكلمن بصوت خافت، ينتزع كل ما يريده بهدوء فظيع. يا الله كم كانت الحبوبة آسيا تكره النساء اللواتي يتكلمن بأصوات عالية تزاحم أصوات الرجال!».

ماء السماء يزاحم ماء البحر في الخارج، تُمطر السماء، يبدو الموج مثل تلال متتالية لا حصر لها، كل شيء يقول إن ثمة مبارزة بين الطرفين، مبارزة ينزع الطرفان خلالها السلاح. يصمت يوسف، يقدم نفسه مجرداً من أية أسلحة، يترك لها الكلام.

تقفز فجأة الهرّة البيضاء «شي شاه» من حضن ناسلي، كحجر يُرمى فجأة في مياه راكدة، تتطاير نظراتها في كل الجهات، ثم تلملم جسدها وتكوره في حضن يوسف.

تصبّ ناسلي مزيداً من قهوة الصباح العاصف والممطر في الخارج، وتقول:

«الذين لديهم حكايات لا يُدفنون، لهذا ما زلت أعيش بين أطياف الحبوبة آسيا وأمي فرلان وخادمتها بحري.

أنت الذي أنكرت دائماً أنك متنبئ أو ساحر، حالما رأيتني أخبرتني أني ولدتُ في ليلة الثالث عشر من آب. خمنت درجة القمر الذي شهد ولادتي».

*** * ***

تنضو نسليهان الملاءة على عجل، وتستقبل هرتها التي تثب إلى حضنها، وكأنها تستعيد حقاً مشروعاً لها، تصبّ بحري الشاي مع الفستق، وتضع بين قدمي سيدتها الصغيرة حذاءً من الساتان المطرز باللون القرنفلي، وصلها حديثاً من عائلة عمّها العائدة قريباً من مدينة أزمير.

تطلب بحماس من بحري أن تروي لها حكايتها لتكتبها لمدرّستها في المدرسة الروسية، حيث كانت بنت الباشا تتلقى دروسها، وتقول بأسف: يقول الكبار إن هنالك حرباً كبيرة نشبت في أوروبة، ولهذا توقفت مجلة «العروس» عن الصدور، لكني وعدت مدرّستي ماري أن أكتب لها قصتك وقصة أمي فرلان، أيضاً قد أكتب حكاية الحبوبة آسيا، إذا قبلت أن تروي شيئاً عن صلاتِها السرية».

تروي الخادمة بحري حكايتها لنسليهان:

تحدد مصيري عندما فَرَش محمود باشا أمام سلطان سلطنة البرنو، كل تلك الهدايا المتنوعة: البرانس المراكشية المطرزة، والثياب الطارقية الزرقاء المطرزة بالخيوط الذهبية، والعمامات الفزانية، المفضضة والمذهبة، وصندوق فيه برانس من المخمل المبطّن بالحرير، وبرانس أخرى بألوان صارخة مقصّبة بالذهب،

ومناديل ملونة، وعمامات، وعيدان الكبريت، وعدد هائل من الإبر والسكاكين، أيضاً الشموع، ومطارق فاخرة مقابضها من العاج لكسر كتل السكر، وأمواس الحلاقة الإنكليزية، والبطاطين الصوفية الفاخرة. أشياء نادرة وثمينة جعلت السلطان يفكر بكل الطرق الممكنة لإكرام ضيفه، وكنت أنا بين تلك الهدايا.

في الصباح، قبل انطلاقي حصلت على بركات الربة الأفعى»إيللويا»، قدمت لها قصعة مليئة بالرز المطبوخ مع لحم البط.

تشهق نسليهان كلما سمعت بحري تحدثها عن آلهة أنثى وأفعى؟!

«نعم، ربّتي «أفعى»، هذا السرّ الذي حملته دائماً معي، حتى وأنا أصلّي على الطريقة الإسلامية، بينما تراقبني سّتنا توركان خانم، وتعدّ لي الركعات؛ لأنها تعرف أني لا أكمل الصلاة حالما تدير ظهرها. أفعل ذلك لأنهم أجبروني على استبدال ربّي».

ربما كانت ناسلي تحب سماع حكاية الخادمة بحري لتسمع عن الرجل الذي عشقته «عمر الفزاني»، الليبـي الذي كان يتاجر بالعبيد لصالح ضباط في الجيش التركي.

كان عمر الرجل الوحيد الذي هرب من آخر قافلة وَصَلَت من فزّان. كان قد ذهب من طرابلس إلى سلطنة واداي عن طريق مرزوق، ومعه مبلغ معقول ليتاجر به، ووصل إلى برنو، واستقر في «وارا» العاصمة. اشترى سرّا ما يقارب ثلاثين عبداً. وفي يوم من الأيام دخل كوخه رجال السلطان واستولوا على أملاكه،

وظل عمر في خدمة السلطان مدة تزيد عن السنة».

تقول بحري لناسلي المتحمسة للحكاية:

«في البداية كنتُ أراقبه من بين عيدان الخيزران التي تفصل الحريم عن باقي أرجاء القصر. لا أتوقع أنه كان قد رآني قبل أن ترسلني معه «القومصو»- هي أرفع نساء القصر شأناً- إلى أحد الأكواخ في أطراف المدينة.

تسأل ناسلي بتعجب: «القومصو؟!»

تقول بحري: أي بلغتكم «السلطانة»، القومصو كانت امرأةً مسيطرة على زوجها وشريرة بعض الشيء، ذلك الشر الذي يلزم أي امرأة عليها أن تحكم قصرها، وسيد القصر.

رغم أن الحاكم كان مسلماً فإن زوجته المفضلة والأثيرة إلى قلبه لم تكن كذلك. كانت لم تزل وثنية، وتؤمن ببركات الربة «ايللويا»، وكانت مهمتي أن أقدم الأرز والعسل واللبن للصنم المزين بالودع في كوخ تحرسه كاهنة مسنّة. الكاهنة كانت أمي، أعطتني بضع تمائم وأوصتني بتسليمها للقومصو.

كان معنا خمسة رجال آخرين من رجال البلاط ومعهم عمر، يومها لم يزح عينيه عني وارتبطنا بحب كبير، هكذا ظننت، حتى جاء ذلك اليوم الذي مُنحت فيه للرجل الأبيض محمود باشا ضيف السلطان، لأخدمه خلال رحلة عودته إلى طرابلس. وقبل ليلة واحدة من موعد الرحيل سهلّت لعمر الفرار، بعد أن أعطيت كل مدخراتي من الوَدَع لأحد الحراس الليليين.

مرة أخرى تقاطعها ناسلي وهي تتوقف عن الكتابة لتسأل باستغراب مشوب باستنكار: «وَدَع؟!».

تكمل بحري كلامها: «الوَدَع كان عملة بديلة للذهب والفضة، يمكننا شراء كل شيء بها. يومها هرّبتُ بندقية من أقبية القصر وبعض الذخيرة وأعطيتها لعمر ليحمي نفسه من الحيوانات المفترسة في اللحظات الحرجة، ونصحته أن يسير بمحاذاة القافلة.

كان عمر يرافق القافلة عن بُعد، وينتظر فرصة مؤاتية للانضمام إلى القافلة وليكون بمحلّ ترحيب بحيث يمكنه إكمال الرحلة إلى فزّان. وأخيراً استطاع الانضمام إلى رجال الباشا، وهم يحيطون بذَكَرِ فيل بغية اصطياده. يومها زعم أن صوت الفيل وصراخ الرجال جَلَبَ انتباهه وانضم للرجال الذين كانوا يقومون بعزل أحد الأفيال من قطيع كان يتجول قريباً من المكان بعد أن جرحوه تحت ذيله.

كان الفيل يُطلق صراخاً عالياً، وهو يرفع زلومته في الهواء، قاذفاً منها كمية من الرمال أعمت الفرسان القريبين منه، من الخلف استطاع عمر وضع حربة على مؤخرته. دفع الرجال بالفيل وضيقوا عليه من كل الجهات، عن بعد أسعفهم الباشا بطلقة أصابته في أذنه، زادت من هيجانه. وبعد مرور عدة ساعات على انفراد رجال القافلة بالفيل الجريح، استطاع عمر دفن خنجره في الجزء المكشوف من بطنه بينما قفز رجلان بين رجليه الخلفيتين، وبعدها استطاعوا إرباكه وخرّ صريعاً غارقاً بجراح أحدثتها حِراب عديدة غُرست في جسده.

سرعان ما وصل النبأ لسكان قرية صغيرة قريبة من المكان،

وظهرت بضعة ثيران عليها فتيات جئن على أمل الحصول على نصيبهن من الشحم لدهن شعور رؤوسهن.

حين فتحوا رأسه ناولني عمر مخّه الصغير لأطهيه لعشاء الباشا. أيضاً انتبهت أنه تودد لفتاة بالغة السواد، لكن بملامح جميلة وذلك بأن أعطاها حصة كبيرة من الشحم. أهالي القرية المجاورة أحضروا لنا لبناً رائحته منتنة مقابل أن يأخذوا جلد الفيل الصلب، ومقابل أذنيه حصلت القافلة على العسل والسمن.

وكادت تحصل معركة حول أسنانه وأنيابه، فتدخل الباشا، وفضّ النزاع بإعطاء الأنياب لأهل القرية مقابل فرس شابة وقوية كان يريدها الباشا، بدلاً من حصانه الذي أصبح يتعب كثيراً.

رغم نعاسي بحثت عن عمر ولم يكن موجوداً. اختفى فجأة. للحظة خمّنت أنه يمكن أن يكون قد انضم إلى بقية الرجال الذين استقبلوا نساء جئن من القرية لتقديم خدماتهن للرجال. كانت ليلة هادئة تسمع فيها أصوات الحيوانات المتوحشة وصوت احتراق الحطب، بينما تأوهات الرجال المنتشين فوق النساء لم تنقطع إلا مع خيوط الفجر الأولى.

لم ألمح عمر وخفت أن يكون قد أصابه مكروه، يا لحمق المرأة عندما تعشق! فقد جاء مبلولاً بماء النهر الذي لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه بسبب كثرة الحيّات فيه.

شعرت للمرّة الأولى بالخيانة، رغم أني لم أرَ شيئاً، لكنني كنت شبه متيقنة أنه كان مع تلك الفتاة التي غازلها وهو يعطيها الشحم».

*** * ***

(2)

(امرأة تربت في مهد الرفاهة والدلال ورتعت في قصور العز وبحابح السعادة والجلال فقامت تسلّي ضجرها بلعبة القمار..).

من مقالة بعنوان "المرأة والقمار" كتبتها ماري عجمي

في مجلة العروس العدد السادس شهر حزيران سنة 1912،

عقب انتشار موضة لعب القمار في بيوتات دمشق الثرية.

كانت صداقة نسليهان مع ابنة عمها الآنسة نورجيهان، القادمة لتوها من مدينة أزمير التركية، ثمرة لتناقضات حادة بين الشخصيتين.

حضور جيهان الهادئ، كضوء صباحي خجول، أيضاً جمالها الوادع كان من الصعب أن يلتقي بحضور نسليهان الكثيف والمرير، لولا ولع البشر بالمتناقضات.

احتاجت نسليهان وقتاً طويلاً لتكتشف ما يخلّفه حضورها الواثق لدى قريباتها وتحديداً الشابة الجميلة «نورجيهان»، التي ولدت وتربت في مدينة أزمير، بسبب اشتغال أبيها بالسياسة - كان من أولئك الذين يريدون من الأتراك مغادرة دمشق- عكس ما كان يرغبه محمود باشا الذي كانت تربطه علاقة وطيدة مع السلطات العثمانية.

«نور جيهان»، تتكلم التركية، والفرنسية، والإنكليزية، وتجيد اللغة العربية، وتعزف على البيانو، وجلبت معها صناديق مليئة بثياب مستوردة من إيطاليا وفرنسا، استطاعت نسليهان الحصول على أثمن تلك الثياب من خلال الفوز بلعبة البوكر.

لم يخطر على بال عائلة «العم» القادمة من أزمير، ما يمكن أن تخبئه بنت الباشا من أسرار، لا يمكن أن تمتلكها إلا أنثى ذكية تربت بين ثلاث نساء خطيرات. والدتها «فرلان» التي وصلت حرملك الباشا، لتكون الجارية الأخيرة التي تُهدى إلى الباشا من والي بغداد. نجحت «فرلان» بتحقيق حلم الأبوة للباشا عندما بلغ الستين من عمره، لم

تحبل فوراً، إنما انتظرت عشر سنوات في حرملك الباشا وهي تواظب على شرب كل تلك الخلطات العشبية التي تطبخها العجوز الصابئية آسيا، وتلك التمائم السحرية التي تجيد تحضيرها الزنجية بحري. لكن السّت توركان لم تكن واثقة بأن فرلان قد حبلت فعلاً من الباشا!

*** * ***

في ذلك اليوم، عندما اضطرت جيهان إلى أن ترفع بيد مرتجفة غطاء الصندوق الكبير، لتطلق سراح «شي شاه»، الهرة البيضاء ذات الوجه المفلطح والعينين الزرقاوين والفرو الكثيف المترف، تيقنت أنها تخشى من شيء خفي لا تدرك حقيقته، ينضح من عيني ناسلي.

كانت الهرّة، مثل صاحبتها نسليهان، هادئة، وقورة، واثقة بكل الظروف. رغم أن «شي شاه» خرجت من مكان معتم وضيق، لكن لم تكن لتموء، فقط ركزت عينيها على عيني جيهان المرتبكة.

عقب تلك الليلة، عندما ضربت جيهان، ابنة عمها نسليهان، بعد أن صدمتها بمعرفتها لقصة زيارتها للطبيب الفرنسي، خطر على بال جيهان أن تنتقم من ناسلي.

يعرف الجميع مقدار تعلق نسليهان بقطتها «شي شاه»، حالما اختفت القطة الشيرازية البيضاء، طرقت باب دار عمها، فُتِح لها الباب، دخلت دونما تردد، تعرف تماماً أين كانت ذاهبة.

وقفت في الباب، نسليهان مثل قطتها، تقول أشياء واضحة بعينين مغمضتين.

كان يكفي نظرة منها إلى الصندوق. جيهان التي بدا كأنها تلقّت أمراً صارماً، أخرجت «شي شاه» من الصندوق. ظلت الهرة هادئة، لم تبد أي انفعال، وإنما أخذت مكانها المعتاد بين ذراعي صاحبتها لتكمل حياتها المتمهلة.

على الطرف الآخر تكدّس الحقد أكثر بقلب جيهان التي كان وجهها ينضح حنقاً ورعباً بآن واحد.

غادرت نسليهان، بينما جيهان بقيت في مكانها مثل نهار كئيب، لبدته غيوم لا تمطر.

*** * ***

تجلس «شي شاه» هانئة بحضن نسليهان التي تستمع إلى ما تقوله «بحري»، المعتادة على ما يريده الرجال من النساء ليلاً. بعد مدّة أربع سنوات أمضتها ضمن حريم يُفترض أنهن يقدمن المتعة لثلاثين من أبناء السلطان اليافعين. كانوا تقريباً بأعمار متقاربة؛ لأن السلطان كان يحتفظ بحوالي خمسين امرأة للإنجاب. كانت بحري تفهم ما يريده الرجال من الأنثى.

عندما كانت نسليهان تسألها عن تصرفهن حيال حالات الحمل، تشرح لها بحري كيف كن يخضعن لعملية تبخير سنوية تضمن عدم حملهن، وإذا ما حدث حمل غير مرغوب فيه فإن القومصو سوف تتولى أمر خنق الفتاة التي تحبل والتخلص منها سريعاً.

تكمل «بحري» سيرتها، وتحكي لنسليهان كيف استطاعت نيل رضا الباشا بسبب خدماتها المتفانية والدقيقة والذكية.

«عندما واجهتنا عاصفة ممطرة أتيحت لي الفرصة لإظهار بعض مهاراتي. كان الباشا أخيراً مرتاحاً لخدماتي، حيث قمت بحفر حفرة في الرمل برمح أخذته من أحد الحراس، وقمت بدفن قمصان الجميع في الرمل، وعندما انحسر المطر حفرت من جديد وأخرجت الثياب وكانوا سعداء جداً وهم يلبسونها جافة تماماً، فالرجال لا يتأثرون إطلاقاً بتعرض أجسامهم العارية للعاصفة، بينما الرجل الأبيض الباشا محمود كان يعاني من البرد والرطوبة.

في إحدى الليالي عاد عمر بعينين براقتين، وخمنت أنه استمتع بخدمات واحدة من النساء اللواتي يبعن الخضار على ظهور عجول تحملهن من قرى قريبة إلى سوق الواحة القريبة التي كانت القافلة تمر منها. وبالفعل سمعت الرجال يتهامسون حول شيء كهذا. كانوا يحسنون استغلال عطايا الباشا لمقايضة الطعام. تحدثوا كيف أن امرأة واحدة قدمت خدماتها لهم الستة مقابل مرآة صغيرة.

مع الوقت اكتشفت أن الباشا كان يتعمد إعطائهم زيادة، بحيث يضمن حصولهم على متع النساء، حتى لا يتذمروا خلال النهار من مشقة الترحال، وليبعد شهواتهم عن جسدي. كنتُ الأنثى الوحيدة بالقافلة والباشا يريدني لأجل العناية بطعامه.

أحياناً كان يكفي أن يعطيهم قليلاً من النشوق ليحصلوا على عدة نساء يقضين الليل معهم».

*** * ***

كان أهم ما تعلمته ناسلي من الحبوبة آسيا ودادا بحري: «حفظ الأسرار». أن تقلل من «الفضفضة»، فلا أحد يعلم متى ستكون مصلحة ذلك «المنصت المخلص»، في خيانتك.

لم تتحدث قط عن الأفعى التي تعبدها دادا بحري.

تصمت ناسلي كلما لمحت أفعى، تراقبها عن بعد، ثمة شعور خفي ومبهم ومتواطئ مع ذلك الكائن الأملس الزاحف، رغم أن أمها فرلان لم تكن تجلّ الأفعى، ولا تخاف منها مطلقاً.

ذات مرة، في قصر العائلة المبني في الغوطة، كانت ناسلي تقطع البوابة باتجاه باحة الحرملك. في قاعة الاستقبال العلوية كان هنالك حفل استقبال نسائي، حيث تجمعت عدة خوانم مع كريماتهن للتمتع بشراب اللوز المثلج في صيف دمشق الحارق.

أجمعت عدة نساء وفتيات على أن ناسلي عندما كانت تعبر البوابة، صادفت حيّة رقطاء طويلة وعريضة في الوسط، الحية كانت تتحرك ببطء شديد وبدا واضحاً أنها ابتلعت دجاجة من الحظيرة. تجنبتها ناسلي بهدوء ولم تصدر أية صرخة أو زعقة كما تفعل الفتيات عادة، مرّت قريبة منها كما لو أنها تتحاشى إزعاجها.

لم يكن ذلك غريباً، فيما لو عرفت تلك النسوة أن الفتاة تربت بكنف امرأة تعبد أفعى، وأخرى ولدت في منزل حاو.

لمرات كثيرة روت لها بحري كيف عمد حبيبها عمر الفزاني إلى قتل ثعبان ليثير غضبها:

«قَتَلَ عمر ثعباناً ضخماً. علمت للحال أنه فعل ذلك ليعذبني. كان حيواناً مقززاً ومفزعاً بالنسبة للجميع، بينما رأيته كائناً أملس لا يستحق ما حدث له، وطلبت المسامحة والعفو من ربتي إيللويا.

كان الثعبان ما يزال يتحرّك عندما قام عمر بفصل رأسه عن جسده. وعندما شقوا بطنه، استخرج الرجال عدة أرطال من الدهون. قالوا إن السكان هنا يستخدمونها لعلاج الماشية المريضة، وستتمكن القافلة من مقايضتها بأكل وفير».

* * *

تجلس نسليهان مغمورة بالظل الذي ترميه جدران القصر العالية. «شي شاه»، تغطي أنفها بذيلها، تنام، كما لو أنها تملك العالم بأسره.

لم تبح نسليهان قط شيئاً عن قطتها ذات المظهر الغريب، قطة جمالها هجين، حتى أمها فيرلان لم تعرف قط كيف وصلت «شي شاه» إلى حضن ابنتها ناسلي ولا حتى حبوبتها آسيا، لكن دادا بحري تعلم أن الهرة البيضاء كانت هدية من حمد الدرويش.

كانت المناسبة إحياء ليلة الإسراء والمعراج، رأته من خلال النوافذ المخرّمة المطلّة على السلاملك، حيث تجمع عدد كبير من وجهاء دمشق لسماع عزف الناي ورؤية رقص المولوية.

في ذلك الوقت كانت نسليهان قد بدأت تزور الكنائس سرّاً، تزور كنيسة القديس بولس لأنها بعيدة عن منازل ذويها وأقربائها. كانت مشغولة بفكرة «الإيمان»، بسبب تربيتها المختلطة من قبل ثلاث سيدات، كل واحدة منهن تدين بديانة مختلفة.

في تلك الليلة أثارتها تلك الرقصات «الدورانية» حيث يرتدي فيها الرجال تنانير واسعة، ويبدأون بالدوران استجداءً للصلة بين العبد وخالقه.

في صباح اليوم التالي نبشت كل مكتبة أبيها لتقرأ عن جلال الدين الرومي، الشاعر الصوفي الذي أسس تلك الحركة.

من يعرف نسليهان جيداً يدرك أنها لم تلتق حمد الدرويش بسبب حبّها للمعرفة.

كانت تريد ملامسته، اشتهت أن ترمي بجسدها بين ذراعيه، استفزتها يده اليمنى التي كان يرفعها إلى الأعلى، بينما خفض اليسرى خلال دورانه.

يومها شرح لها سبب ذلك: «التخفف من الحياة الدنيا وأثقالها، ورغبة بالصعود إلى ربه».

في ذلك الوقت كانت مراهقة، يمكن لأبسط الأشياء أن تُشعرها بالاندهاش، تصمت وتنظر إلى البعيد، وهي تسمع حمد الدرويش يردد أشعار الرومي:

(سأذوب في الهواء، وأصبح عدماً، حتى أصل إلى حبيب-ي. سأصبح ناراً، أحرق بيتي وأذهب إلى الصحراء. سأصبح ألماً حتى أبرأ. سأصبح متواضعاً وأصير تراباً، حتى تنمو أزهارك فيّ).

لم يكف حمد الدرويش قط عن النظر إلى السماء وهو يترنّم بكلّ تلك القصائد التي كانت تسحر ناسلي.

صرخت فيه مرّة واحدة، هي التي لا تصرخ مطلقاً: «قبّلني».

بين ذراعي حمد الدرويش بحثت ناسلي لأول مرة عن كمالها المنشود، أرادت أن تصبح «امرأة». حمد الدرويش رفض، ولم يكن قدر ذلك الرجل أن يفضّ بكارتها. بقرار منه، استمرت علاقتهما العذرية لمدة سنتين، لم يمسسها خلالهما، لكنه فعل الأخطر من ذلك: ثقفها، قدم لها المعرفة.

*** * ***

«لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحب-ي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

لقد صارَ قلب-ي قابلاً كلَّ صورةٍ فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبانِ

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواحُ توراةٍ ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه، فالحبُّ ديني وإيماني.

كأن كل شيء حولها كان مزيّفاً، عدا تلك الأبيات الشعرية لابن عرب-ي.

عندما قامت بتهريب يوسف، للمرّة الأولى، بثياب امرأة إلى مخدعها، كانت الذريعة أنها تريد منه أن يخط لها تلك الأشعار على الجدار فوق سريرها.

«المال، الثياب، الأقمشة الفاخرة، الخمر، الأكل اللذيذ، كلّها بدائل بائسة للحبّ. إذا لم نحصل على الحب فلن يضيف لنا أي شيء امتلاك تلك الأشياء.. إذا لم نستمتع بالحب الذي نشعر به..». هكذا كانت تقول نسليهان هامسة لنورجيهان، التي غدت مؤرقة من تلك الأشياء التي تبوحها لها ابنة عمها.

رغم أن نسليهان سترمي الحجاب وستعيش بقية حياتها بعيداً عن تلك الأقمشة الفائضة عن جسد أيّة أنثى، فإنها ستظل ممتنة للملاءة السوداء وذلك الخمار الأبيض المسدل حتى الأرض، بفضلها استطاعت تمرير يوسف إلى سريرها.

ابتكرت جنّتها ناسلي التي لم تكن تؤمن بالوعود أبداً، تفعل ما يسعدها بنفسها، تنفذ خططها دون الاستئذان من أحد، لا يهمها التاريخ، لا تعنيها العادات ولا التقاليد، لا تخيفها التهديدات، لا شيء يوقفها، إنها، ناسلي، الجديدة كل يوم، التي أعلنت مبكراً في مدرستها، وأدهشت زميلاتها ومدرّساتها وهي تتكلم بجرأة: «الحياة

للأحياء، والموتى للموت». أول يدين صفقتا لها كانت تلك الأنامل الرشيقة لناستيا.

*** * ***

ما الذي قاله العرّاف «بُصرى» لنسليهان؟ لا أحد يعرف!

من ذا الذي لم يسمع بذلك العرّاف الذي قدم إلى دمشق من مكان مجهول؟ رجل أربعيني، أسمر نحيل، بعينين ناتئين، أمرد، جسده خالٍ من الشعر.

ذاع صيته بسرعة، أرسل بطلبه الوالي، أراد امتحان قدراته. العرّاف «بُصرى» أجاب على معظم أسئلة الوالي بنجاح. عندما سأله عن معرفته للغيب أخبره قصة غريبة، روى كيف أنه كان قد خرج إلى الصيد ذات مرة، وهناك رأى غزالة يطاردها ذئب، فقتل الذئب، للحال انقلبت الغزال جنيّة اسمها «ميمونة»، زعمت أنها ابنة أحد ملوك الجان «ميمون السياف». كافأته «ميمونة» على صنيعه معها على طريقتها: جعلته قادراً على الإخبار بالغيب.

كانت نسليهان برفقة بنات عمها والقهرمانات. كان يقابل كل زبون على حِدة. جاء دورها، بضع دقائق وخرجت مسرعة، كان مقرراً تناول الغداء في بستان صدر الباز على ضفة نهر بردى، لكن نسليهان أصرّت على إكمال طريقها إلى القصر، هناك ولجت إلى غرفتها وفتحت خزانتها وتفقدت فستان جدتها الشهير «النيلوفر الملكي».

(3)

(أولئك الذين لا يتذمرون، لا يشفقون على أحد)

جين أوستن

(المرأة حبّ، والرجل فكر..)

مي زيادة

تُنصتُ نسليهان لدادا بحري بوداعةِ حيوانٍ في مأواه، بينما بحري تتكلم:

«كنت أحب تدليل جملي الذي خصصه الباشا لركوب-ي. وعندما قبلت بعض الخبز والتمر من أحد رجال القافلة لألقمها لجملي خلال الرحلة، نَهَرَه عمر بفظاظة وأخذ مني الخبزات وحبات التمر ورماها في الرمل. قال له بحسم وانفعال: «إنها كافرة».

كنا نقطع دربنا الطويلة باتجاه غدامس، ولم يكن الوقت مناسباً لنعتي بالكافرة.

رحت أتظاهر بالصلاة أمام أفراد القافلة حتى يقتنعوا أني مسلمة. رغم أني كنت أهمس لربّتي ايللويا، وربتي لها قلب كبير عطوفة وحنونة.

في أحد الأيام، كانت تنطلق القافلة حوالي الواحدة والنصف صباحاً تفادياً لقيظ النهار. كنّا نسير فوق حمادة صخرية، ما إن سرنا ساعة واحدة تقريباً حتى انحلّ الرباط الأمامي لجملي، فسقطت على ظهري، ولحسن حظّي أنّ رأسي قد وقع على فراشي الذي سقط أمامي.

بأعجوبة نجوت من كسر محتّم برقبتي. أُصبت ببعض الرضوض الخفيفة.

عينا عمر المترقّبة أكدّت لي أنّه وراء ما حدث.

عندما أخذنا قيلولة صباحية في الساعة الثامنة صباحًا تقريبًا

انتبهت إلى أنّ عمر كان يهمس بشيء عنّي لعدةِ رجالٍ تجمعوا حوله. للحال تظاهرتُ بأداء الصلاة.

مرّت القافلة بالقطرون، عاد الباشا ومرافقه حنّا، وقد جلبوا من السوق الخضار والذرة، وتمراً فاخراً محمولاً بسلالٍ جميلة مصنوعة من جريد النخيل. حنّا قدم لي مظلّة لتحميني من الشمس. كان قد أخذها من أحد تجار طرابلس الذي يتجه بحمولة من تلك المظلات إلى برنو.

كان حمل المظلات في برنو ممنوعاً لدى عامة الشعب، فقط يحقّ للسلطان وحاشيته التمتع بالظل الشحيح الذي توفره تلك المظلات. كانت القومصو لا تتنقل إلا والمظلّة فوق رأسها، والآن حظيت بواحدة لي. كانت هدية رائعة من حنّا تقديراً لخدماتي.

وسمعت حديثاً متقطعاً بين عمر ورجال آخرين كيف أنّ الدولة العثمانية كانت تمنع حمل المظلات إلا للسادة وذوي الشأن في الدولة، وأنّ تاجراً من مرزوق أجبر على دفع غرامة باهظة إلى حسني باشا قائمقام السابق في مرزوق، لأنّه سار في المدينة وقد فتح مظلة. إلا أن المنع قد ألغي في جميع أرجاء الدولة العثمانية. ضحكت بيني وبين نفسي كيف أن تجارة الرقيق ممنوعة رسميّاً بينما يشرف عليها مباشرة الضباط العثمانيين في طرابلس. وعمر لم يتمالك نفسه دون أن يمرر عبارة مثل: تخيّلوا العبدة السوداء وهي تحمل مظلّة؟!

لم يبد على أحد من الرجال أنه حظي بقطرونية، فعيونهم لم تكن تفارقني خلال تأديتي لأعمالي الصغيرة قريباً من الباشا وخادمه حنا».

* * *

أضاف محمود باشا إلى قصره قاعة استقبال علوية في قسم الحرملك. زيّنها أفضل وأمهر الرسامين والنقاشين بزخارف مذهبة ونقوش بديعة، وجعل في كل غرفة فسقية لا ينضب ماؤها.

أجرى تعديلات على نوافذ قاعات الاستقبال في القصر، نفّذها على الطراز الأوروب-ي وجعلها أوسع، بينما ازدانت الجدران بثلاثة وعشرين مصب بيضوي على شكل محاريب. استبدلت الدرابزونات بأخرى جديدة.

ازداد بهاء قصر محمود باشا الذي يُقال إنه شُيّد على أنقاض مسرح روماني، ويعود تاريخ بعض زخارفه إلى القرن السابع عشر.

اشتهر قصر الباشا بصمود خرافي، فعندما شبّ حريق كبير أتى على معظم البيوت والقصور المحيطة، نجا القصر بأعجوبة.

سرت بين الناس إشاعة حول تأثير تلك الطلاسم المرسومة أعلى ساكفة البوابة الرئيسية للقصر.

ثمة تقليد عتيق كان سائداً في دمشق لكن على نحو سرّي للغاية؛ لأن ذلك التقليد حرمته التعاليم الإسلامية.

هنالك سَحرَة كانت مهمتهم أن يطلسموا القصور وحتى مدن بأكملها. تلك الطلاسم تحمي الأبنية من نوائب الدهر، وتؤمّن المدن من دخول الأعداء.

استمرت تلك المهنة على نحو متكتم، لم يكن منفذوها يُعرفون إلا من قبل الأغنياء لأن هؤلاء لديهم ما يخشون عليه.

في ذلك اليوم الشتائي المشمس عبر رجل في الثلاثين من عمره، أبيض، ملامحه دقيقة، عن بُعد يُلمح أنه رجل بهي الطلعة، يرتدي زي يهود دمشق، ثياب قماشها فاخر، كان الشاب ينتمي لعائلة تعمل في تجارة البروكار الدمشقي، لكنه اختار مهنة أخرى: السحر.

اشتهر يوسف بقدرته على طلسمة القصور ومعرفته بأسرارها جيداً. يقوم برسم حيوانات مجنحة ونقش كلمات غير مفهومة، مربعات ومثلثات وأرقام.

عمل لعدة أيام في قصر الباشا الذي حرص على إنجاز الطلسمة في وقت شتائي يندر فيه قدوم الضيوف. أخيراً عندما انتهى، جلبَ يوسف للباشا، قلّة فخاريّة صغيرة مختومة بالرصاص والشمع الداكن اللون، أحمر مشبع بالزرقة، وطلب من الباشا أن تقوم فتاة بِكر بدفن تلك القلّة تحت بلاطة تتوسط القصر وعلى عمق مترين.

كانت نساء القصر، متحمسات لكلّ ما كان يفعله يوسف. فرلان وآسيا وبحري كنّ يمتلكن قدرات سحرية يخفين أمرها بتكتم شديد عن الباشا.

لم تغفل ناسلي أي حركة من حركات يوسف، ليس فضولا بما كان يفعله، إنما لسبب آخر: ذلك الشيء الذي لايمكنك إنكاره، تشعر به لكن لا يمكنك تسميته، أو تفسيره، نعم لقد حدث ذلك الشيء، جرى النهر الخفي بينهما، تلك الماء التي تمنى يوسف أن يتجنبها

إلى الأبد، أراد أن ينجو منها في نفس اللحظة التي وقعت فيها عيناه عليها، ولى زمن الراحة، وأقبل وقت الجحيم.

خمّن يوسف قدرات نساء القصر، فقد انتبه لشيء من تلك الطلاسم منقوشة بدقّة ودراية فوق باب غرفة الآنسة نسليهان.

*** * ***

تقول الحبوبة آسيا لنسليهان: «ناظم بيك يريدك».

تمرّر ناسلي أناملها بفرو قطتها «شي شاه»، لا تقول شيئاً.

لم يكن سرّاً أنه يعشقها، وأن عمّها بين وقت وآخر يفاتح شقيقه الباشا بموضوع اقتران ناظم بيك الذي عاد من باريس حاملاً شهادات عليا، ويجيد عدة لغات، وينشط في السياسة، يكره الأتراك، بقدر ما يتشهى جسد نسليهان.

منذ البداية قالتها ببساطة لأبيها: «لا أريده».

في مدينة مثل دمشق، وحدهن البنات المدللات، المحبوبات، والثريات، يمكنهن

رفض عريس.

كان الباشا يدرك حقيقة أنه لم ينجب وريثاً ذكراً. معظم العائلات الثرية تميل لمنع الفتيات من الزواج، للحؤول دون تسرّب ثروة العائلة إلى غيرها، لهذا المطلوب عريس يوازي ثراؤه ثراء العروس التي يتقدم إليها.

عندما جاء ذلك اليوم الذي مزّق فيه ناظم فستان ابنة عمه، حكمَ عليها بخيارات لم تتوقع أنها ستختارها، ومخططات ستقدم على تنفيذها رغماً عنها، ودروب تسلكها مرغمة، وستخطو خطوات لم تتهيّأ لها. كانت معركة لا رحمة فيها، ستبلغها شظاياها سواء انتصرت أو هزمت فيها.

قبل أن تتلقى تلك الصفعة لم تكن تعتقد أنه هنالك قبر لكل شيء.

*** * ***

تضحك نسليهان وتقول بدهشة مع شيء من الاستخفاف: «هل يمكن لإله أن يُخبّأ في جحرٍ، كما لو أنه فأر..؟!».

كانت بحري تتابع حكايتها الغريبة وبجدية كاملة تحكي لها كيف اضطرت إلى تخبئة ربتها «ايللويا» في واحة في الصحراء اسمها «مرزوق».

«كان الوقت عصراً عندما لففت نفسي جيداً بكل ما أملك من قماش، وخبأت بين ملابسي ربتي «ايللويا» لأعثر لها على مخبئ لائق. فلم أعد أجرؤ على حملها معي.

كان السكان خليطاً من الطوارق والتبو والعرب، وبدأتُ بقطع شوارع تحفّ بها بيوت مبنيّة من الطين وذات طابق واحد، وقليلة هي البيوت ذات الطابقين.

قطعت السوق حيث يتبادل الفزانيون والتبو والطوارق منتجات السودان من عاج الفيل وريش النعام وقرون الكركدن مع أهالي واحات غدامس وجالو وتوات وتافليت، ويأخذون مقابل ذلك بضائع أوروبية. كنت أظنّ أني سأرى الرقيق يباعون بالسوق لكني لم أرَ أياً منهم، فقط فتيات من فزان لونهن أسمر غامق يميل إلى الحمرة، يبعن منتجات المنطقة من بطيخ وحليب وبيض دجاج.

رأيت أن أعرّج على المقبرة لعلّي أعثر على مكان آمن أضع فيه ربتي إيللويا، بحيث لا يزعجها أحد. لم يكن شيء يميّز تلك القبور سوى كسرات فخارية وبيض نعام، وليس ما يميّز قبور السلاطين عن غيرها إلا بحيزها المتسع والسخاء بكسرات الفخار وبيض النعام عليها.

عدتُ أدراجي وأنا أتحرّى كثرة البيوت المهجورة بالمدينة بسبب الطين المالح الذي يتصدع إذا ما سقطت الأمطار بشدّة، ولذلك يهجرها أصحابها لتشييد بيوت جديدة.

لم أجرؤ على ترك ربتي ايللويا في أحد تلك البيوت، كيف يمكنني أن أترك ربّة جميلة عطوفة مثلها في مكان آيل للسقوط؟

كنت أتجول قريباً من القصبة، مقر سلاطين فزّان السابقين، ثم أصبحت المقر الرسمي للقائمقام العثماني، إلا أن حليم بك قد هجرها، ويشاع أن السبب في ذلك يعود إلى أنها مسكونة من الجن كما سمعت من الباشا وهو يخبر حنا ويسخر من ذلك، مؤكداً أن الرياح التي تسرح فيها نتيجة الفتحات الموجودة في نوافذها وأبوابها. بينما باعتقادي أن تلك الأصوات التي كانت تُسمع تأتي من الزمن الغابر حيث قتل العثمانيون كل أسرة السلاطين، وهكذا قطعت رؤوس أكثر من مئتين من هذه السلالة ليتمكنوا من

السيطرة على الصحراء.

كانت الشمس تميل إلى الغروب، عندما رأيت أن أجرّب وأعثر على مكان لربتي ايللويا.

على الرغم من حالة التداعي التي كانت تعتري هذا القصر المتهالك الذي يسميه أهل مرزوق «القصبة»، فإنه يبقى ذا مظهر مثير للدهشة والفضول لارتفاع تلك الجدران الطينية وسمكها.

شعرت للوهلة الأولى، أني أدخل كتلة هائلة من الطين الجاف والشامخ تحت سماء واسعة.

أروقته العالية بدت لي كمتاهة حقيقية، لكنه كان يشبه القصر الذي عشت فيه. لهذا استطعت عبور الأروقة وقاعة العرش الكبيرة التي تصفر فيها الريح.

عن بعد لمحت حيّة رقطاء طويلة تدخل أحد الغيران الكثيرة في زوايا القصر. وصلت تلك الغرف الصغيرة والواطئة التي تلتصق بالقصر، وهناك في كوة عميقة تناثرت حولها كسر من الفخار، تركت ايللويا وطلبت منها أن تسامحني، ودعتها، وعدت بسرعة لأعثر على طريقي للخروج من متاهة الطين تلك، قبل أن يشعر بـي معشر الجن. كنت على يقين أن الأمكنة التي تجمع بين الجن والأفاعي هي أماكن تحرس كل ما يخبئ فيها. لهذا كنت مطمئنة إلى أن ربتي بأمان هناك.

كنت قد ظننت أن عمر، استغني عني، وذلك منحني شعوراً بالراحة، لكن ذلك الشعور تبخر. عندما كنت صباح اليوم التالي وحدي أنظف غرفة الباشا الذي غادر صباحاً إلى السوق مع حنا، كنت أنحني على أحد الصناديق وأقوم بتنظيفها من الغبرة عندما ارتطمتُ فجأة بالأرض بعنف ويدٌ حانقة كبيرة كممت فمي، فوراً عرفت أنه عمر الذي ارتمى فوقي بكامل ثقله، ولم أستطع أن أطلق أي صوت أو أن أتحرك. بسرعة عجيبة حسرَ ثوبـي الكتاني الفضفاض عن فخذيّ، ودخل بـي بعنف فظيع، وبعضّة موجعة على مؤخرة عنقي انتهى منتشياً ثم رفعني ورماني بشكل ظننت معه أني تحطمت. كان يهم برفعي مرة أخرى وقذفي على الحائط عندما سمع صوت أحدهم قادماً، فتراجع وقفز من النافذة وتركني وهو يتوعّد أنه سيقتلني يوماً.

* * *

بدت نسليهان شغوفة بتحوّلاتها، امتلكت تلك اليد الهادئة

التي تتقن تحضير قهوتها، تقول ليوسف:

«أخشى من ذلك الشعور الذي يباغتني فجأة، كأن أشعر بأن كل أشياء طفولتي قد ضاعت مني..».

تنفض رأسها وتمسك بفنجان القهوة الصباحي، وكأنه هو غنيمتها المتاحة لها، في هذا النزاع اليومي مع الزمن، في حربها المتجددة مع بزوغ كل شمس: «ألا تعتقد أن كل يوم جديد هو بمثابة، رعب للماضي، لكلّ تلك الأشياء التي ينبغي أن لا ننساها، أن نرويها، لعلها تصمد قليلاً..»

يبتسم يوسف لتلك الجنيّة التي تتكلم عن ماضيها الخرافي، كما لو أنها تتحدث عن امرأة أخرى لم تكن هي قط.

تعود إلى الكلام مجدداً بلهجة من يثرثر بلا جدوى: «أتعرف؟ ربما يكون السقوط رحمة، لذاك الذي مشى طويلاً على حبال الذاكرة، لماذا أتذكّر كل ذلك؟! لماذا نجتاز مسافات مجانية مقتفين بقايا صور لم تعد موجودة إلا في أذهاننا؟!».

تتجه صوب ألبوم صور يربض على منضدة قريبة منها، حملته على عجل وأخفته في أحد أدراج خزانتها، فعلت ذلك بحسم، وكأنها ستحظى بسلام. بحثت عنه طويلاً، سلام ندرك مع الوقت أنه لا يرتاح إلا مع الموتى.

تقول وهي تأخذ مكانها على أريكتها، لتقابل البحر الذي يحيّا في الخارج كوحش فظّ:

«أتعلم؟ آسيا لم تقرأ قط كتاب قومها المقدس»؟

كنت أسألها: لماذا؟

تجيبني للمرة الألف: «لأنها تكتب باللغة المندائية، وتعلمها محصور برجال الدين، وهؤلاء يحرصون على منع عامة الناس من الكتاب المقدس».

- **ما اسم كتابكم المقدس؟**

تقول آسيا: «كنزه ريه» أي الكنز العظيم، ويقال له «سدرا-آدم» أي صحف آدم

ألا تعرفين عن ماذا يتحدث؟

- «عن بدء الخليقة والتطورات التي طرأت على البشر..».

ثم ما تلبث أن تتابع الحبوبة آسيا كلامها عن دينها كمن نسي شيئاً عظيماً ثم تذكره:

- «وكتاب «سدره اويهيا» أي كتاب تعاليم يحيى يتضمن سيرة حياة نبينا يوحنا المعمدان وتعاليمه لنا، وهنالك كتاب ثالث اسمه «سدره أونشماتا» أي كتاب التعميد وسرّ المعمودية يعتقد أنه نزل على أبينا آدم».

تتابع نسليهان كلامها ليوسف:

«كانت الحبوبة آسيا تحلم بزيارة «المندي» وهو معبد الصابئة، وفيه كتبهم المقدسة، وهناك تجري عملية تعميد رجال الدين، ولا يبنى إلا على الضفاف اليمنى للأنهار، له باب واحد من جهة الجنوب بحيث يستقبل الداخل إليه نجم القطب الشمالي..».

تثبّ «شي شاه» من حضن يوسف كأنها تذكرت شيئاً غامضاً، فجأة أرادت العثور عليه، بينما ناسلي تكمل كلامها عن حبّوبتها آسيا:

«لكن آسيا لم تدخله يوماً؛ لأن ذلك محرّم على النساء. يوم الأحد كان يوم عطلتها تقدّسه وتتفادى العمل فيه. كانت كل من بحري وأمي فرلان يقمن بكل شيء يوم الأحد، حتى لا ينتبه الباشا إلى أن آسيا تنفذ شيئاً من تعاليم دينها. لا أتذكر أني طلبت منها شيئاً في يوم أحد.

كانت تنفر من اللون الأزرق النيلي، ولا ترتديه ولا تلامسه حتى. مع الوقت خلا القصر من ذلك اللون دون أن يثير الأمر انتباه أحد.

الأهم من كل ذلك براعتها بالحسابات الفلكية والتنبؤ بحوادث المستقبل.

كان الباشا يستشير الحبوبة آسيا، فيما يتعلق بما يمكن أن تقوله النجوم؛ لأنها تعرف أن ليلتين ممطرتين لاح في سمائهما نجما «الدبران والبطين»، فإن ذلك علامة على سنة مجدبة، ستشير عليه بترك زراعة مئات من الدونمات الموزعة حول دمشق، التي اعتاد زراعتها قمحا. عندما لا يزرع الباشا أرضه سيحذو حذوه الجميع وستترك الأراضي بورا. فتنبؤات آسيا تلك لا تخيب.

يحدث كل فترة زمنية معينة أن تصطفّ الكواكب على خطٍ واحد مع الشمس، في أحدِ منازل الشمس الاثني عشر، وهذا يوحّد طاقاتها، في واحدة من تلك الليالي، أشعلت تسع عشرة شمعة، على شكل دائرة، في الساعة الحادية عشرة ليلاً، كما كانت تُسميّها: «ساعة زُحل»، طلبت مني أن أدخل تلك الدائرة حافية وجعلتني أتجه صوب نجم القطب، ولخمس مرّات دارت حولي، ورددت خمس كلمات لم تتغير بالمرات الخمس التي دارتها حولي، ثم قالت اخرجي، لم تطفئ الشموع، تركتها تنطفئ من تلقاء ذاتها. يومها قالت لي لن يُفلح أحد بالنجاة من الأذى إذا ما أقدم على أذيّتك، سيمرض، ستخرب داره، وتُطفأ ناره، حفظت تلك الكلمات التي لن أبوح بها لأحد ولا حتى للورق».

تضحك ناسلي، يضحك يوسف، تتململ شي شاه، يرتفع الموج في الخارج، يصفق المطر زجاج النوافذ، في تلك اللحظة بدا كلّ شيء مؤثراً، المطر والموج كانا فارسي الإعصار. تتابع ناسلي:

«كانت تحب الرقم خمسة، هو عدد الوحي، والاتصال، وتقاطع الروح مع الجسد والحب، والرغبة، والاتحاد، والصحة، والحظ، والأثير..

استبشرت آسيا بقدومي خيراً؛ لأن جدتي «توركان خاتون» توفيت بذات الليلة، كانت قد أجبرت آسيا على ارتداء اللون الأزرق النيلي لمدة تزيد على العشر سنوات.

لا أدري أين الخلاف بين ديننا ودين آسيا! تؤمن آسيا بالله الواحد الأزلي الذي لا تدركه الحواس، لكن له ثلاثمئة شخص مهمتهم أن يقوموا بأفعال الإله.

كنت أسألها: «هل هم ملائكة»؟

- «ليسوا بآلهة أو ملائكة، يعرفون الغيب، ويعملون كل شيء من برق ورعد وليل ونهار ومطر وضوء..».

- «كيف خلقوا»؟

- «ناداهم الله بأسمائهم فخلقوا وتزوجوا».

- «تزوجوا»؟

- «تزوجوا بنساء مثلهم، ويتناسلون بأن يلفظ أحدهم كلمة، فتحمل المرأة فوراً وتلد واحداً منهم».

كانت تتظاهر بالصلاة على الطريقة الإسلامية، لكني كنت

أعرف أن ثمة طرازاً آخر من الطهارة مفروض عليها غير الوضوء الذي نعرفه. كنت أراها كيف تتسلل ثلاث مرات كل يوم إلى النافورة لأن طهارتهم لا تكون إلا من ماء غير منقطع عن مجراه الطبيعي.

كانت تتوضأ وهي متجهة إلى نجمة القطب، أي إلى الشمال. كانت تؤديه على نحو شبيه بوضوئنا، ولم أسمع أو أفهم قط ما كانت تتمتم به. تؤدي صلاتها ثلاث مرات قبيل الشروق وعند الزوال وقبيل الغروب.

لشدّ محبتها لي، قامت بتعميدي سرّاً على طريقة قومها، وذلك بعد مرور خمسة وأربعين يوماً على ولادتي. كانت تختفي في يوم عيد البنجة من كل سنة كبيسة.

رغم أنها تتظاهر بصوم شهر رمضان، فإننا نعلم أنها كانت تصوم لمدة ستة وثلاثين يوماً على مدار السنة تمتنع خلالها عن أكل اللحوم.

* * *

التقط صوراً كثيرة في مدينة دمشق ذلك المصور الأمريكي الذي زارها، في 1921، مغنيات وراقصات، وفتيات سيئات السمعة ارتدين ثياباً بورجوازية فاخرة لكن قديمة ورثّة، ليزعم أنه استطاع تصوير سيّدات من الطبقة الأرستقراطية الدمشقية.

عندما زارته نسليهان وأرادت التقاط صورة، لم يصدّق عينيه وهو يرى العباءة السوداء تُرمى جانباً، وتكشف عن ثوب النيلوفر الملكي المنسكب على جسدٍ ليس سهلاً أن يعثر عليه كلما أراد أن يلتقط صورة لأنثى جميلة.

وقتها لم تكن بعد سيدة، لم تلتق بعد بيوسف، كانت مراهقة، تعابث حمد الدرويش، وتحبّ تجريب الأشياء الجديدة. وقفت الفتاة الشابة أمام عدسة المصور ونظرت نحوه، كمحسن ينقذ حياة طفل من الجوع.

تلك النظرة في عيني بنت الباشا لن يشملها الخراب يوماً. تتسرب من خلال أكشاك بيع التذكارات، تلوح للخيال وكأنها تحيا في عالم آخر بعيداً عن الخراب الذي يجلبه الزمان والموت.

استلمت صورتها تلك بشهية كبيرة بعد أن ألقت نظرة على صور التقطها المصور الذي جال في أنحاء متفرقة من سورية، فصوّر أطفالاً بثياب مهلهة، نساء يحملن جرار الماء، رجالاً يمتطون خيولهم..

الجميع يحدقون بعيون منبهرة بضوء يعتقدون أنه سيختطف شيئاً من وجوههم أو أجسادهم.

يومها قصدت سوق الخشب لتنتقي إطاراً من الخشب المطعم بالصدف لتؤطر فيه صورتها تلك، وهي تزهو بفستان بلون النيلوفر الملكي، فستان توركان خاتون، التي كانت جارية روسية شهيرة بحسنها وذوقها وقدرتها على بناء علاقات صداقة مهمة مع نساء الجالية الأوروبية المقيمة في دمشق. تلقت ذلك الفستان كهدية من زوجة القنصل الفرنسي، خمّنت أنه لا بدّ وقد صُنع في إحدى ورش الخياطة الملكية في باريس في مطلع القرن التاسع عشر بسبب عودة آل البوربون إلى الحكم، واحتفاء بذلك، أصبحت الفساتين تخيط متضمنة ثماني عشرة ثنية إكراماً للويس الثامن عشر.

*** * ***

كل ضيفات القصر كنّ ينتظرن تقديم الشاي الذي تصنعه بحري.

كانت تتقن تحضير الشاي بالفستق المقلي، وتقدمه حسب الأصول الليبية فترفع الإبريق إلى الأعلى وتصبّ منه الشاي في كؤوس صغيرة، ثم تسكب من جديد في الإبريق، وتستمر هذه العملية حوالي عشر دقائق، بحيث يذوب السكر وتطفو الرغوة.

تتأرجح دادا بحري، متعبة، وهي تسترجع حكايتها، تطفو الصور وتحاول التقاطها، لتشكل ما كان يوماً ماضيها، تتكلم ونسليهان تشد هرتها «شي شاه» إلى صدرها، تغمض عينيها وتستمع:

«في طرابلس استقر الباشا في منزل بحي المنشية، بيت بسيط، ذو فناء داخلي، وعدّة غرف للسكن ومطبخ وقبو وغرف للمؤونة. وخلف البيت بستان صغير يطل على البحر، زرعت فيه أشجار البرتقال والليمون.

كان الباشا راضياً تماماً عن خدماتي، وكنت أعلم أني سأرافقه حتى دمشق، فهو رجل معروف عنه حبه للصيد والترحال والاستكشاف. سيحتاجني في رحلاته الطويلة، سمعته يتحدث عن رحلة يزمع القيام بها إلى الهند.

تعلمت كيف أغلي القهوة وأصبحت أقدمها على الصينية بشكل لائق وبنظافة، بينما في السابق كنتُ أحمل القهوة للباشا

وحنّا، وإصبعي غاطس في عمق القهوة».

تتلمس بحري شعر رأسها الذي يشبه الصوف أكثر من الشعر، وتتابع:

«كنت أعرف أن الباشا يكره الرائحة التي تفوح من شعري لأني كنت أجدله تلك الجدائل الرفيعة المتساوية الطول، وأدهنها بدهن حيواني، مع الوقت استبدلته بزيت النخيل وأصبحت الرائحة مقبولة أكثر.

كان حنا يستغرب أني أجدل شعري كل تلك الجدائل حيث يعشش القمل بكثافة. نصحني كثيراً بتغيير طريقة تعاملي مع شعري، لكني كنت عنيدة بهذا الشأن إلى أن جاء ذلك اليوم الذي أمسكتني به

«زبيدة» في شارع سيدي عمران..

كنت أظن أني بأمان من عمر عندما لم أعد أراه منذ وصولنا طرابلس.

ظلّ كل شيء هانئاً حتى ذلك الصباح عندما كنت قرب جذعٍ غليظ لشجرة نخيل معمرة تتوسط البستان المطل على البحر. أشوي البيض على الرماد الساخن. كنت قد استبقيت لنفسي شيئاً من الشاي والخبز الطازج بعد أن تناول كل من الباشا وحنا فطورهما وخرجا يرافقهما خادم ليحمل بعض مشتريات الباشا من سوق الترك، حيث كان يُعدّ العدة للقيام برحلة جديدة إلى الصحراء.

ضربني عمر، وغطى وجهي ببرنس، ولفّ كل جسدي به.

«سأبيعك للمبغى لبيت صاحبات الذنوب». هذه آخر عبارة سمعتها من عمر الفزاني الذي لم أره بعد ذلك الصباح حتى هذا اليوم.

استفقت مساءً في فناء مبنى كبير، بهيئة جميلة يلمع بياضاً ونظافة. وعن بعد لاحت لي بوابة صغيرة محفورة بالسور يعلوها قوس وهي مغلقة بقضبان متشابكة مع بعضها. أول شيء رأيته كان حديقة يتوسطها بئر وغرف مطلية بالأبيض تفوح منها رائحة البخور. نوافذها متجهة صوب الفناء الداخلي.

كنت شبه مستلقية وأسند رأسي على جدار ما، أنظر حولي بينما لم أنتبه لامرأة بيضاء بعينين حادتين صغيرتين ماكرتين بشكل

عجيب. كان اسمها: «زبيدة»، بدت أنها قطعت عمر الخمسين، وصبغت شعرها الطويل بالحناء. وكيفما تحركت تسمع أصوات للخلاخيل الكثيرة التي تحيط بها ساقيها.

كنت أحاول أن أتذكر ماذا حدث بعد أن ضربني عمر على رأسي، عندما رأيت عدة نساء يخرجن من أماكن مختلفة من الغرف المطلّة على الفناء المليء بالورود، وكلب ذئبـي استلقى نائماً دون اكتراث بفيء أحد الجدران.

عدة نساء تجمعن حولي وهن يتكلمن لغات مختلطة. كان الحديث يدور عني.

ثلاث زنجيات كنّ عاريات الصدر، ويرتدين سراويل حريرية متشابهة لكن بألوان مختلفة وكثيرة الزركشة. ويزين رؤوسهن بريش النعام، وقلادات من الوَدَع، تتوزّع على أعناقهن وتبلغ أثداءهن الممتلئة على نحو غير معتاد عند الزنجيات في إفريقيا. اثنتان أخريتان بملامح بربرية، وبشرة صفراء شاحبة، أسدلتا جدائلهما للأمام دون زينة واضحة، لكنهن لففن جسديهما بأقمشة بدت كما لو أنها غير مخيطة، فقط ثبتت على الكتفين بعدة دبابيس رؤوسها مرجانية. وأربع أخريات اثنتان سمراواتان، واثنتان أخريتان بشرتاهما بيضاوان، لكن واحدة منهن كانت جميلة جداً تحمل عينين خضراوين مثل عيني الباشا.

تلبس تلك النسوة ثياباً لا تكاد تخفي شيئاً من أجسادهن، فقد بدت حلمات أثدائهن واضحة تحت أقمشة حريرية ملونة بعدة ألوان باهتة.

كل امرأة كانت تملك غرفة مستقلة. يتكون طاقم المبغى من تلك النسوة الجميلات. فحتى قصر السلطان في وطني لم تكن فيه فتيات بمثل تلك النظافة أو الجمال. الزنجيات الثلاث كن يتكلمن لهجتي الكنورية بطلاقة.

استمعن إلى قصتي بينما «زبيدة» التي تتكلم العربية بطريقة مكسرة لم تهتم كثيراً بأقوالي، بسبب الثمن الذي دفعته لعمر الفزاني الذي اعتاد زيارة مبغاها بشكل متواصل، وعرض عليها أن يبيعها فتاة صغيرة بملامح ناعمة وجسد ممتلئ كانت ضمن حريم سلطان مملكة برنو، وبارعة في أمور الحب، ويمكنها إسعاد عدة رجال في ليلة واحدة دون تعب. القذر، أخبر صاحبة المبغى أنه قام بشرائي من برنو، ولم يخبرها أني كنت هدية السلطان لمحمود باشا لأقوم بخدمته خلال الرحلة، وأن خدماتي اقتصرت على تحضير

الطعام. لم يكن مهمّاً أن تصدقني، فهي دفعت ثمني. وعليّ أن أبذل جهدي لتستعيد المبلغ الذي دفعته لعمر الفزاني.

عندما قامت بتفحص جسدي من رأسي حتى أخمص قدمي لم تكن راضية كثيراً، فقد رأت أن القمل الذي تعجّ به جدائلي لا سبيل للخلاص منه إلا بحلقه من جذوره.

لم ينفعني بكائي، و»كوكه» الزنجية واستني قائلة إن ذلك أفضل لي؛ لأن زبيدة لن تبدأ بتقديمي للرجال إلا بعد أن يطول شعري، وذلك سيستغرق شهرين أو ثلاثة. وخلال ذلك الوقت عليّ أن أعثر على مخرج لنفسي، إذا لم أرد قضاء سنواتي القادمة وأنا أستقبل كل أصناف الرجال. وذلك لن يتم إلا بعد أن أعمل بما يكفي لتسديد المبلغ الذي دفعته «زبيدة» لعمر، ومعه بعض الأرباح، وبعد ذلك ستترك لي حرية الاختيار.

عادة تضمن زبيدة أن النتيجة ستكون لصالحها؛ لأن الزنجيات لن يعثرن على مكان آمن بسهولة خارج المبغى.

هكذا بدأت أيامي، أنهض باكراً، أطعم الكلب الكبير الذي يشبه الذئب والذي تناديه زبيدة باسم «جنتيليه»، وهي كلمة تعني كما أخبرتني إحدى الفتيات «اللطيف» بالإيطالية، ثم أقوم بكنس الحديقة من الأوراق المتساقطة وأخرج الماء من البئر، وأتنقل على رؤوس أصابعي في منزل يتكوّن من حجرات مستقلّة لكلّ زبون على حدة، كي لا يلتقي الواحدُ بالآخر.

أبدأ صباحاً بتحضير الطعام لعشرة نساء، وعليّ أن أفعل كل ذلك بهدوء كبير دون أية جلبة أو ضجيج، حتى لا أزعجهن لأنهن يقضين النهار وهن نائمات بعد أن يقضين الليل وهن يستقبلن الرجال.

في البداية كنتُ أتلصص من كوة غرفة المؤونة، حيث وضعت لي زبيدة فراشاً مهلهلاً وبطانية قديمة بالكاد تدفئني. كنت أرى الرجال وهم يدخلون من الباب الذي لا يفتح إلا ليلاً، حيث كانت زبيدة تحمل المفاتيح معها كيفما تحركت، تفتح الباب وتستقبل زبائن غالبهم ينتمون لطبقة التجار، فيأتي أولئك الأغنياء أصحاب الحوانيت الصغيرة في سوق «الترك»، أو أولئك التجار الذين جاؤوا لتوّهم من رحلة طويلة عبروا خلالها الصحراء مع قوافل محملة بالبضائع. وهؤلاء يقصدون مبغى زبيدة قبل أن يقصدوا زوجاتهم. كما أن زبيدة تأخذ منهم مالاً مضاعفاً عن غيرهم؛ لأنهم يرهقون أجساد الفتيات بشهواتهم المؤجلة لعدة أشهر.

أحياناً تضطر لاستقدام طبيب الحامية العسكرية لمعالجة واحدة أو اثنتين من الفتيات عقب ليلة مع أحد أولئك الرجال. ومنذ مدة أقلعت عن استقبال زبائن من الصحراء إلا إذا كانت تعرفهم، كذلك الملاحون لم تكن تستقبلهم. وفي الليلة التي تصل فيها باخرة إلى الميناء، فإن زبيدة تطفئ الفانوس وتغلق الباب ولا تفتحه لأي كان. الفتيات كن يتهامسن عن فتيات متن تحت سقف هذا المنزل، بسبب رعونة وجلافة بعض الزبائن الذين يعاملون فتيات المبغى كحيوانات.

لم تكن زبيدة تتكلم بالأمر مطلقاً. أقدم الفتيات في المبغى كانت المالطية «نعمت». طبعاً لم يكن اسمها، لكنهن يطلقن على أنفسهن أسماء عربية ليحفظها الزبائن. نعمت حكت ذات مرة بعد أن أفرطت بشرب مشروب مسكر قدمه لها أحد الضباط الفرنسيين، كيف أن رجلاً متوحشاً كسر عنق إحدى فتيات زبيدة بعد أن اعترضت على عنفه معها. وكانت الفتيات يتهامسن أن الفتاة مدفونة في فناء المنزل.

كنت أخشى الأرواح كثيراً، ولو كانت معي ربتي «ايللويا» لساعدتني كثيراً. وصدقت قصة نعمت تلك لأن زبيدة كانت حريصة بشكل مجنون أحياناً على عدم استقبال زبائن قد يكونون عنيفين مع الفتيات».

* * *

كانت هواية نسليهان المفضلة الاختفاء. كانت دائماً تردد على مسامع قريباتها:

«إذا أردت الإختفاء، خذ سبعة جلود من جلد الحرباء، تجعلهم طاقية، وتلبسها بعد أن تقرأ العزيمة وتطلق البخور، فإنك تختفي عن أعين الناظرين من الجنّ والإنس». هكذا أعطت «نسليهان» وصفة الاختفاء لبنات عمها. جربن تلك الوصفة، لكن لم تختفِ أي منهن، نعتن نسليهان بالحمقاء، ضحكن. نسليهان صمتت وعلى طرف ثغرها ابتسامة مخيفة، ابتسامة مجرم سعيد بارتكاب جريمته دون دليل. قالت بصوت واثق ومتعال: «هل تتوقعن أني غبية بحيث أعطي الوصفة كاملة؟! هل سمعتن بساحر يفشي أسراره مثلاً؟ اممم.. تعتقدن أن زيارتكن للطبيب الفرنسي في باب شرقي سرّ لا يعرف به أحد؟! بلى هو كذلك لكني تبعت خطاكن وأنا أرتدي طاقية الإخفاء، كنت محاذية لأجسادكن.». صمتت وقد خيّم السكون المريب والثقيل على الغرفة، بينما التفتت إلى نورجيهان وخاطبتها بلغة حاسمة: «هل تألمت؟» زعقت جيهان زعقة مدوية، وبشكل

هستيري رمت نسليهان أرضاً.

لم يبد عليها أنها تفاجأت بشيء، سمحت لجيهان ببضع لطمات قبل أن تتوقف وهي منهارة من الغضب، وتنخرط ببكاء مرير.

انسحبت نسليهان من المكان وهي تعدّل ثيابها وترتب تسريحة شعرها، خرجت ولم تلتفت.

تحمي الملاءات السوداء الفضفاضة والنقابات الطويلة النساء والفتيات اللواتي يقمن بزيارة الطبيب الفرنسي في باب شرقي. لم يكن يخفى على أحد أن ذلك الطبيب «أندريه غوتييه» كان بارعاً بإجراء عمليات تعيد البكارة كما كانت، وبإجهاض الأجنة غير المرغوب فيها.

* * *

بين ذراعي يوسف، مغمورة بحرارته، تقول نسليهان:

«بعد أن أطعمتني أمي فرلان قلب ثعبان اصطادته بنفسها، طوله حوالي خمسة أذرع، تربصت به في يوم الثلاثاء، اليوم الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، لم أعد أعرف الخوف.

الشهر عند آسيا كان عبارة عن الزمان الذي بين هلالين.

لم تكن تمارس سحرها في الأشهر الحرم، تلك الأشهر التي كانت العرب فيها تنزع الأسنة عن رماحها وتقعد عن شنّ الغارات، وفيها يأمن الخائف من عدوه.

أتعلم؟ السحر متعة، عالم من الممكنات، يتحدى المستحيلات الكثيرة التي تهددنا بها الحياة.

يمكن لأحقادنا أن تجتاز المسافات أكثر مما يمكن لمشاعرنا الطيبة أن تفعل، وجلّ ما يفعله السحر هو تنظيم تلك المشاعر السوداء المهابة.

وحده الساحر يمكنه أن يوقظ النجوم لتتواطأ معه، ليحسن انتقاء ضحاياه، ويحرّض تلك القوى السريّة، المجهولة، التي تَظهر فقط لأولئك الذين يثقون بإنجازها وبوجودها، كائنات أثيرية، تخضع لمعادلات السحر، وتُكرّس لضعضعة أحلام، واستقرار، وضوء الذين يكرهوننا ونعتقد أنهم عقبة في طريقنا، أمّا أولئك الذين يقدمون على إيذائنا، فلا متعة تضاهي متعة إشعال درب التبانة بتمائمنا وعزائمنا، لنعلقهم كعصافير قتيلة حان وقت مغادرتها لهذه الأرض».

فطنت ناسلي، في وقت مبكر، لتلك الحقائق الشاحبة التي تتواطأ مع فكرة أنه هنالك الطيبون وهنالك الأشرار، وهنالك الأهم من الطرفين والأجمل، إنهم البشر العصيون على التصنيف، أولئك «غير النظاميين»، الذين يحولون القوانين إلى حبال يمشون عليها، خطأ واحد سيكون قاتلا، لكن هذا يحدث مع الجدييّن، الأخلاقيين الذين يمشون على الحبل بحذر وخوف، بينما هنالك الذين لا يخافون ويلاعبون الحبل، يحولونه إلى أرجوحة وحسب.

يسألها يوسف، ربما لأنه يعلم أنه كان دائماً المرشّح الوحيد لتقول ناسلي أمامه أشياء حقيقية عن نفسها: «أخبريني عن حقيقة جلد الثعبان الأسود الذي زعمت بعض زميلاتك في المدرسة الروسية أنك كنت تستعملينه بين وقت وآخر لإيذاء بعضهن».

تجيبه ناسلي دون أيّة علامات على المفاجأة أو الإنكار: «لماذا يعتقد البعض أن الحياة منحتهم حقاً شرعياً لإيذاء من يتفوقون عليهم؟!».

تعدّل من جلستها، تتمطى، تتثاءب وتكمل كلامها: «ببساطة دافعت عن نفسي، الشرّ واحد ومتعدد في آن واحد، يشهد على ذلك أساليبه المتنوعة، وأصواته الكثيرة. ليس هنالك شيء أكثر متعة من تلك اللحظة التي ترتدي فيها قفازيك، لتصنع سحرك، شرّك الخاص الذي تملكه أنت، ووحدك يمكنك أن تسلّطه على من تشاء، ترسل نقمتك كريح تسلك درباً معلوماً غير مرئي، لتزعزع أحياء بأكملها، ليسقط الفارس عن حصانه».

تثبّ «شي شاه» من حضن ناسلي، تموء، تلاحق حشرة صغيرة، تبدو كذبابة ضلّت طريقها، تبحث عن نافذة لتخرج، بينما الهرّة راحت تلاحقها كما لو أنها تلعب لعبة لا يتقنها أحد غيرها، تكمل ناسلي بوحها ليوسف:

«لماذا نقبع في العتمة ونبكي عندما يهجم علينا الآخرون بسبب غيرتهم وهشاشتهم وضعفهم؟ أتعلم؟! للأشرار أنواع: هنالك الذين هم كذلك لأنهم لا يملكون شيئاً للمنافسة، لا الموهبة، ولا الحضور، ولا الجمال، ولا الذكاء، وهنالك الأشرار العظماء الذين يتلاشى في ظلّهم كل من يحاول الاقتراب منهم أو مسّهم بيد مشبوهة».

تتابع «شي شاه» لهوها بمصير الذبابة التي غدت منهكة وعلى وشك الاستسلام، بينما الهرّة تهاجمها كما لو أنها سرب من الدبابير، بدا يوسف مستمتعا بتلك الكلمات التي تخرج من فم

حبيبته، استمتاعه ذاك يؤكد أنه اعتاد على بوحها الوحشي، يعرف أنها تصمت عندما لا يكون بوسعها التفوّه بما يخيف الآخرين، تحبّ قول تلك الأشياء الوحشية، والضرورية، نوع من الوقاحة المحببة لا تحب ناسلي أن تستبقيها في فمها، تنظر إليه، وفي عينيها نظرة من يحصي الزهور في حديقته:

«أتعلم، الخير يتميز بأنه كرامة، بينما الشرّ هو كبرياء».

(4)

(إن القمر يضيء؛ لأنه لا يهرب من الليل)

جلال الدين الرومي

(أعتق وحرر مماليكه حاملي هذا الكتاب وناقلي هذا الخطاب المدعون بدلاور بن عبد الله الأبيض اللون الخالي العذار المربوع القامة، الأورسي الجنس، والمدعو سنبل بن عبد الله، الأسود اللون، البوني الجنس المربوع القامة وأعتق وحرر جاريته المعترفة له بالرق والعبودية المرأة الكاملة المدعوة وفا بنت عبد الله الرومية، البيضاء اللون والزرقا العين الطويلة القامة الأرسية الجنس.. حرر وأعتق جاريته المدعوة ساونار بنت عبد الله الكورجية الجنس، الطويلة القامة، السودا العينين والحاجبين المعروفة لسيدها..).

نماذج من صكوك العتق الموجودة في مركز الوثائق التاريخية السورية، منقولة عن كتاب، التاريخ العمراني لدمشق بين 1016- 1918م، تأليف لطفي فؤاد لطفي، صادر عن وزارة الثقافة، 2011.

هل كان سرّ اهتمام ناسلي بتعلم العزف على البيانو مقالات «مي زيادة» عن موسيقى بيتهوفن؟، أم إنها كانت تتوق للتفوق على نورجيهان بالعزف؟!أم إنها أرادت البقاء لفترات أطول بصحبة ناستيا؟ أغوتها صحبة تلك السيدة القادمة من أرض بعيدة!

عندما عثرت «ناستيا» المرأة الروسية الأربعينية، البالغة الطول والبياض، والتي رددت طويلاً دائماً زعماً مفاده أنها كانت بارونة في وطنها روسيا، قبل أن يطيح البلاشفة بالقيصر، على عمل لها في المدرسة الروسية بدمشق لم يكن ذلك إلا بفضل علاقات محمود باشا.

أهل دمشق تناقلوا إشاعة تؤكد أن الباشا قابل ناستيا خلال رحلة له إلى اسطنبول، في أحد النوادي الروسية الليلية التي ازدهرت بسبب اللاجئين الروس والمنفيين من روسيا القيصرية. ففي المطاعم التركية لم يكن مسموحاً إلا للندل الذكور بخدمة الموائد، بينما الملاهي التي افتتحها الروس ضجّت بجمال النادلات الروسيات، مثلما عزفت فيها موسيقاهم، وأطعمتهم، وأشربتهم.

كان السواح يرتادون تلك المقاهي والمطاعم والملاهي للاستمتاع بالأكل وبصحبة نساء يوصفن بـ «الدوقات»، بينما الروس يذهبون هناك للبكاء على ماضيهم الذي لن يكون إلا ذكرى مريرة بالنسبة إليهم.

هل كانت ناستيا مجرد نادلة، أم مغنية في ملهى الزنبقة السوداء؟! لا أحد يعرف بالضبط لكنها استطاعت أن تكون محظية للباشا، وصلت إلى دمشق بالضبط في نهاية عام 1920، أسكنها الباشا في منزل صغير قريب من قصره، وطلب منها تدريب ابنته الوحيدة على عزف البيانو.

ترددت ناستيا على قصر الباشا لمدة عامين، خلال ذلك لم يكن ينظر إليها الباشا، مطلقاً، كان يتجاهلها ويعتقد أنه بذلك يخدع نسوة القصر.

يومها رمت قهرمانة القصر الحبوبة آسيا، وَدَعها، وضربت الرمل، وأخذ شكل، المربع. هذا يعني بلغة الوَدَع الثبات. لهذا لم تخشَ فرلان من ناستيا، إنما كانت مستمتعة بتلك الزيارات، وهي تسمع ناستيا تتكلم عن عالم مختلف لا تعرفه فرلان مطلقاً، بينما

ناسلي ترجمت لأمها ما كانت تقوله «نوسة» كما كانت تدعوها، ويمكن التخمين أن ناسلي كانت تترجم كما تريد، تزوّر وتحرّف، وربما تخترع قصصاً لم تقلها قط ناستيا، أو تحدث معها، وبعد مدة كانت كل نساء القصر كارهات للثورات والرعاع الذين يقودونها، الذين هم البلاشفة.

*** * ***

يطفو صوت نسليهان الرائق وهي تتساءل: «هل يحزر أهل دمشق أين أنا الآن؟».

منذ اليوم الذي لمحت فيه البحر، قررت ناسلي أنها ستظل قريبة من ذلك الاتساع الهائل الذي يبدّل أحواله بسرعة، يتأرجح بهدوء كما لو أنه سيبقى كذلك، ثم يتشظى مجنوناً ملتهماً هائجاً، ما يلبث أن يهدأ كما لو أن عاصفته التي مرّت لم تبتلع تلك القوارب المتسكعة بلا مبالاة بعيداً عن حضن الميناء، كما لو أنه لم يغير مصائر آلاف من أسراب السمك، كأن جنونه ليس إلا مشهداً عابراً من طباع خالدة.

تتكلم من خلف النافذة المطلّة على بحر أزرق حبري هدأت عاصفته للتو:

«إنهم هنا، وهناك، وفي كل مكان: العسس الذين يفترضون، سلفاً، المارة مذنبين، والهويات مزورة، والتصاريح كاذبة، كل ما تحمله ممنوع، ووجهك قناع مختلس. الرجال ينظرون إلينا كما يجب أن نكون، لا كما نرغب في أن نكون أو أن نعيش.

لا أحد يريد أن ينظر إليك كما أنت، والنساء يفعلن ذلك قبل الرجال.

كانت نورجيهان تطلب مني أن أكون واضحة، هههه.. كم أحب أن أزيد في حيرة الحمقى. مطلوب أن تكون واضحاً، الغموض ممنوع، وكل غموض تحيط به نفسك، سيتولى الحمقى أمر تأويله وفق هواهم، والخبثاء يأولونه وفق مآربهم».

تصمت ناسلي التي صنعت لنفسها ذات يوم نعشاً وهمياً، عقب تلك الليلة التي مرّت عليها وهي حبيسة تابوت مفتوح.

كان ذلك أبسط ما يمكن أن يفعله معها ناظم بيك.

تنفض رأسها وكأنها لا تريد أن تتذكر شيئاً، تتابع كلامها بعد أن

تتراخى حدته قليلاً، يوسف يكتفي بسماع ما يعرفه جيداً:

«جرّب أن تكون واضحاً، قل الحقيقة مثلاً! قل شيئاً مستنداً إلى الذكاء، قل شيئاً منطقياً، أطلق ضوءاً كاسحاً على كلّ القناعات التي تُذلنا، كلّ تلك اليقينيات الجاهزة، التي نولد لنعتنقها دون نقاش. كل اللاعقلانيات التي تحكمنا منذ مئات السنين.

جرّب وناقش أحداً حولك وقل له: «هذا الموضوع مقرر منذ زمن بعيد، ما قبل أجدادنا، تعال نناقشه، تعال نفهمه». سيجيبك: «لماذا نفهمه؟ ماذا يجدينا أن نفهمه!؟».

كأن أذرعاً غامضة تنتشل يوسف من صمته وابتسامته التي لا تفارق ثغره وكأن كل شيء تقوله محبوبته مثار لتسليته ودهشته، يقول:

«لا يمكن لأحد أن يزعم امتلاكه الحقيقة، فالحياة ليست أمراً سهل الفهم، لا الكون ولا الموت ولا الزمن، فقول الحقيقة محض ادعاء..».

تنزلق «شي شاه» من حضن صاحبتها، وتنسلّ إلى ذلك المكان السريّ الذي تتقن كلّ القطط الوصول إليه، بينما تقول نسليهان:

«لكن كيف نجابه أولئك الذين يدّعون امتلاكهم الحقيقة المطلقة، فيما يتعلق بالكون والحياة والموت؟».

تتحرك، بارتباك، تبحث عن «شي شاه»، وكأنها تقتفي أثر أشياء ضائعة منذ زمن بعيد، تتابع كلامها: «من قال إني كنت أبحث عن مباركة من حولي لما أقوم به؟ هم لن يباركوا حتى فنجان القهوة الصباحي».

وحده يوسف سمع بوح نسليهان الغاضب: «لا اكتفاء في هذه الحياة الزلقة بكل ما فيها، حقائقها، معاييرها، نظرياتها، معادلاتها. كل من يجرؤ ويصرخ في وجه هذا الكون اللامحدود ويزعم امتلاكه الحقائق المطلقة التي لا تُناقش سيتعفن في الظلام، وإلا كيف نفسّر «العتمة» التي تحيق بنا؟!

متى يصلنا الضوء؟! حتى مدرّستي «ماري» التي أحببتها كثيراً وتعلمت منها الكثير، وهي لا تتكلم دون أن تمرر عبارات لزينون وسقراط واناكساغوراس وايمرسون ومارك توين، لم تتقبل ما قلته لها يوماً حول رأيي بمقالة لها كان عنوانها: «نصيحة أم إلى ابنتها».

اعترضتُ على جملتها تلك: «لا هناء ولا لذة ولا فرح ولا حياة إلا بضبط النفس وقمع رغبات الجسد». وتنعت الشهوات بالمستنقعات!؟

كل صديقاتي اللواتي حملن شهادات عليا من الكليات الإنجيلية لم ينجزن شيئاً أهم من «الصمت»، انزوين خوفاً من ألسنة الناس، ومعظم تلك الألسنة تعود للنساء أنفسهن».

في الخارج يهدأ البحر أكثر، يهتز بوداعة تحت ضوء الشمس المارق من بين الغيوم.

يهدأ البحر، مثل قلب عاشق يجهد نفسه بمواراة احتراقاته الغيورة.

*** * ***

تغمر شمس المساء رؤوس المآذن بضوء الغسق المشبع بالألوان، تحدّث بحري نسليهان عن عيون ناظم بيك وهو يتلصص عليها عندما كانت تقوم بنزهة مع شقيقاته في الغوطة، لا تكترث الشابة الجميلة التي تمسّد فرو هرتها البيضاء وتطلب من بحري أن تتابع حكايتها:

كانت «باهية» أجمل فتيات المبغى، رغم أنها تجاوزت الثلاثين وتعد أكبرهن عمراً، لكنها كانت مرغوبة بشكل كبير من قبل زبائن المبغى. ولم تكن تقدم نفسها إلا لزبائن يأتون بشكل منتظم. عندما سألتها عن سرّ شعرها الكستنائي الطويل السابل وبشرتها البيضاء وعينيها الخضراوين، أخبرتني أن أمها إيطالية كانت تعيش في طرابلس مع عائلتها التي تعمل بالتجارة بين وطنها وسوق الترك، إلى أن وقعت في غرام تاجر من فزّان. هربت معه لتعيش في إحدى واحات فزان مع حبيبها الرجل الأسود الثري من قبائل «التبو»، ببساطة جعلها أمَته، وماتت خلال إنجابها لباهية.

كبرت باهية في منزل مليء بشقيقات سوداوات، بينما هي لم يكن يدل على أصلها إلا لون شبكية عينيها الذي يميل إلى الصفرة أكثر مما لدى البيض. وعندما نُهبت قافلة كان يقودها أبوها من طرابلس إلى فزان، ووجد نفسه مفلساً تماماً، قام بتزويج ابنته البيضاء، قبل أن تتجاوز الثانية عشرة من عمرها للقائمقام الأرمل، الذي تجاوز السبعين من عمره، وكان يحكم الواحة منذ سنوات طويلة، وقد أُثرى من تجارة الرقيق. بعد ثلاث سنوات أُقيل من عمله لأنه أشرف على صفقة كبيرة من الرقيق دون أن يرسل الحصة

الكافية للمشير في طرابلس.

انتقل إلى مدينة طرابلس حيث عاشت معه سنتين بهناء في منزل جميل يطلّ على البحر، إلى أن ودّعها ذات يوم قائلاً إنه سيركب البحر ليزور أبناءه وأحفاده في الأستانة وسيعود خلال شهرين. وقام بنقلها إلى منزل آخر مدعياً أنه لصديقة قديمة له، وأنها ستعتني جيداً بها خلال غيابه، ولم تكن تلك الصديقة إلا زبيدة التي اشترت امرأة بيضاء لتحسين مستوى مبغاها.

لمدة شهر وأنا محبوسة في ذلك المنزل، بدت الأيام مثل بعضها. يمرّ النهار هادئاً لا أسمع فيه جلبة تذكر، فقط صوت وقع خطواتها المتأنية حرصاً على راحة الفتيات. زبيدة كانت تنهض قبلهن ببضع ساعات، فأحضر لها النارجيلا، تخلط ماء النارجيلا بعصير البرتقال، وتحضر التبغ اللازم، وتنظف المشرب الذي تضعه زبيدة بفمها قبل أي شيء آخر حالما تستفيق.

كانت مطمئنة لعدم هروب-ي بسبب أسوار المنزل العالية والباب المقفل بإحكام. كل يوم تفتح الباب وقت العصر تقريباً لصب-ي يجلب لها الخضراوات واللحم والخبز بعد أن تكون قد دفعت ثمنها مقدماً.

نالت خدماتي رضى نساء المبغى، ويأكلن بشهية كل ما أطبخه. زبيدة كانت تطلب مني الاستحمام كل يوم، لأعتاد على ذلك في الفترة المقبلة عندما ينمو شعري جيداً وأصبح جاهزة للانضمام إلى بقية النساء.

جميعهن كن يعملن بإرادتهن مع زبيدة، فلا حياة أخرى يعرفنها غير تلك الحياة. كن يدفعن جزءاً من أجرهن لزبيدة ويحتفظن بالباقي لهن. حتى باهية منحتها زبيدة حريتها منذ زمن طويل، لكنها لم تغادر لأنها لم تكن تتقن عمل شيء، ولا يمكنها العيش في مدينة مثل طرابلس دونما زوج يحميها».

*** * ***

تنصت «نورجيهان» بشهية وجمود ولهفة لتلك الوشاية المدهشة التي كانت تسمعها.

لم تخجل قهرمانتها «ريّة» وهي تروي تفاصيل ما رأته تلك الليلة التي اضطرت فيها للمبيت في قصر محمود باشا، بسبب عاصفة مطرية أغرقت شوارع دمشق بسيول جارفة. كانت قد

قصدت منزل الباشا لإيصال نوع من التبغ يفضله، أوصى عليه ناظم بيك من الخارج من أجل عمه الباشا.

وصفت، وحكت، وروت بإسهاب ما رأته في تلك الليلة في مخدع بنت الباشا:

«كانا يختلطان ببعضهما بالمقلوب، يفتّش بلسانه أبعد ما يمكن بين فخذيها، يعضّها، يريد أن يمزّق لحمها تشهياً، هي تستقبل اندفاعه باستسلام لا تردد فيه، لم يكونا يقبّلان، كانا يعضّان، ينهشان، كجائعين.. كنت في مكاني أتلقى تلك القشعريرة التي تصيبنا ونحن نشهد حدثاً فريداً، في العتمة حدثت تقلبات كثيرة، امتزجا مع بعضهما، فورة من جنون جسدين يلتحمان، أخيراً شهقت بشكل مكتوم، أنّت بعمق، ثم أرخت يديها كمن قتلته رصاصة الرحمة، هو توقف للحظة ثم تابع سحقها تحته، غار بين فخذيها، فجأة هزّ برأسه كمن تلقى ضربة عنيفة لتوّه، انتفض كل جسده فوقها، ودفن وجهه تحت عنقها، حاولت هي إبعاد وجهه عن كتفها، وهي تئن، تلقت عضة أليمة، وكزّت على أسنانها.

كنت أشمّ رائحة عرقهما، لم يعد بالإمكان انسحاب ـي، سيشعران بـي، فقد انتهت نشوتهما، وسينتبهان لأي حركة في الخارج، قبعت ككلب بين السور وجدار الغرفة، رأيته يرتدي ثيابه، ثمّ يقبلها عدة مرات، ومرر شفتيه بين ثدييها، ثم خرج حافياً يحمل صندله بيديه، محتمياً بعتمة ليل الشتاء الدامس والعاصفة التي حبست الناس في بيوتهم».

تتنهد الخادمة ريّة بتحسر من لم يذق الحب، ومن لم يعرف تلك اللذة التي تدفع أحد للأنين سعادة، ثم تقول:

«هذا هو الحب.. هذا استمتاع.. شخصان يرغبان ببعضهما».

هكذا وصفت ريّة مضاجعة يوسف لناسلي.

*** * ***

تسألُ فرلان الدادا بحري التي تعتبر أنّ الثعابين حيوانات طيبة وآلهة مقدسة:

لماذا تعبدون الحيّة؟

لأننا نخاف منها.

تجيب بحري على أسئلة فرلان التي تؤمن برجل محاط بهالة

من الضوء ومسمر على صليب خشبـي، تضع صورته في صدر غرفتها، وفي أحياناً كثيرة تشعل شمعة، وتتمتم بكلمات لم تكن تفهمها بحري. لكنها كانت متأكدة أن لفرلان أيضاً إلهاً تخاف منه وتتذرع إليه: «فكل البشر لديهم أحد ما «فوق» يتزلفون له ويمتدحونه بالكلمات المداهنة لخداعه، تماماً كما أفعل أنا مع «إيللويا الأفعى».

تقول بحري ذلك بيقينٍ حاسم بينما نسليهان تضحك وتطعم هرّتها «شي شاه».

أخبريني كيف انتهت قصتك مع منزل زبيدة؟

إنها «باهية»، كان قد مرّ على وجودي حوالي شهر ونصف، وكنت في تلك الليلة المشؤومة قد نمت باكراً بعد أن أنهيتُ أعمالي الكثيرة في فناء المنزل. نهضت على أثر صراخ جماعي جاء من جهة الغرف المنفصلة، في البداية تعثرتُ بفراشي وقطة تلوذ بالفرار أحياناً من الكلب «جنتيليه» الذي علا نباحه وراحت قطة لا أعلم من أين جاءت، تركض بحركات دائرية بغرفة المؤونة المزدحمة بأكياس جلدية وجرار تُخزن بها الحبوب».

لم تنس بحري قط منظر باهية وهي شبه ممزقة بسكين رجل سكران.

كان رأسها تقريباً شبه مفصول عن جسدها، وثدياها تشوها تماماً، وأمعاؤها كانت مرئية من عدة شقوق أُحدثت فيها دون رحمة، بينما فرجها قد هُتك تماماً. كان المنديل الأبيض الذي بقي مكمماً به فمها يشي بما عانته المسكينة.

أهم ما حدث لاحقاً وصول الدرك، وتمسّك بحري بصراخها وإصرارها على القول إنها هدية سلطان برنو للباشا الدمشقي.

* * *

تعترف بحسم، نسليهان، بما سيكون ضدها في أيام قادمة، أمام نورجيهان وبنات عمّها المجتمعات لتدخين سجائر المارلبورو.

«هل أنا مؤمنة؟ القلب، لا العقل، يحسّ الله. هذا هو الإيمان، لا تناقشوني رجاء، الإيمان هبة من الله. الحقائق مثل الله نعرفها بالقلب وليس بالعقل.

الأمر تماماً كطعم رائحة القهوة التي نشربها الآن، هل نشم

الرائحة أم نتذوقها؟! الإجابة صعبة بالنسبة لي.

العقل يمتلك أدلة، والقلب يمتلك مشاعر وتخمينات وأحاسيس».

تسألها نورجيهان: من تحبين حمد الدرويش أم يوسف اليهودي؟!

تضيف السكر لقهوتها وتضيف سؤالاً آخر: أم تحبين كليهما؟!

تجيبها نسليهان بمكرها المعتاد:

أتعرفين أفكر كثيراً بمسجد القدسية صوفيا، الذي كما حدثتك أني زرته في اسطنبول.

أحبّ الأماكن التي اختارها البشر لسبب غامض لتكون مكاناً لعبادة أربابهم، تعلمين مسجدنا الأموي الرائع كان معبداً وثنياً! كما أخبرني حمد الدرويش، كانوا يعبدون فيه ربّاً اسمه جوبيتر، ثم حولوه إلى كنيسة، والآن غدا جامعاً يصلي فيه المسلمون.

كذلك كنيسة القديسة صوفيا، تحولت إلى جامع، وقد تعود كنيسة.. من يدري.

تنتظر جيهان إجابة عن سؤالها، حول سرّ علاقتها برجلين في آن واحد، بينما ابنة عمها المحيرة والمقلقة كعادتها تتكلم عن الدعامات التي تحتويها كنيسة آيا صوفيا، تحدثها بجدية، عن مئة وسبعين دعامة من الرخام الجميل، وعن الفسيفساء الرائعة التي تزيّن القبّة، حيث سقطت بعض التزيينات الجصية والزخرفية التي أضافها العثمانيون لتحويلها إلى جامع، وظهرت بعض ملامح القديسين، رؤوسهم محاطة بهالات القداسة.

لم تكن متأكدة نورجيهان من حقيقة ما ترويه ابنة عمها عقب عودتها من الرحلة الطويلة التي قامت بها عقب تلك الليلة الشهيرة، يوم مزّقت أصابع ناظم بيك الغاضبة ذلك الفستان الذي كانت تتباهى به فخر الموقرات توركان خاتون، تلك الجارية الروسية التي تلقاها والد محمود باشا كهدية ثمينة من القيزلر آغاسي أي «آغا السراري» كبير الأغوات الموكلين بحراسة حريم السلطان العثماني.

عقب ليلتين فقط من حادثة تمزيق فستان النيلوفر الملكي، توفيت فرلان.

هل ماتت قهراً على الابنة الوحيدة التي حُرمت من فرص زواج لائق بسبب ابن عمها الأرعن؟

هل علم الباشا بما جرى، أم إن أحداً لم يجرؤ على إخباره؟

تلك الأشياء التي روتها نسليهان عن السنوات الخمس التي غابت خلالها عن دمشق برفقة الباشا، وناستيا، هل كانت أصيلة، أم إنها أرادت أن تُعيد الجدارة لحضورها بين بنات العائلة من خلال اختراع الأكاذيب؟

ظلت حكايتها تنتمي إلى بنية «الكذب» وليس «الحقيقة»، هي بذاتها أنجزت جزءاً كبيراً من تلك الحقائق القليلة المحيّرة والأكاذيب الكثيرة المقلقة.

لم يُعرف قط، بالضبط أين قضى الباشا السنوات الخمس بعيداً عن دمشق. خمن الجميع أنه علم بما فعله ابن شقيقه الأرعن بابنته الوحيدة، وموت فرلان المفاجئ دفعه لمغادرة المدينة. غضب على طريقته، من يعرف طباع الباشا يخمن أنه لم يطل غيابه عن دمشق لكي ينسى الناس حكاية تمزيق الثوب، إنما كان يريد لابنته الوحيدة أن تنسى ذلك. البعض تكلّم عن مكوثه تلك المدة في مدينة القاهرة، وآخرون أكدوا أنه قضاها في اسطنبول، بصحبة ابنته، والبارونة الروسية المزعومة، ناستيا. هو أيضاً لم يكن مرحّباً بالتغييرات السياسية التي حدثت في بلاده، لم يكن سعيداً بخروج العثمانيين من دمشق، ودخول الفرنسيين. لم يكن يحتمل رؤية الشبان الجدد المتعلمين الذين راحوا يؤسسون الأحزاب ويشتغلون بالسياسة، وكان من بينهم ابن شقيقه ناظم بيك.

عقب يومين من وصوله دمشق من رحلته الطويلة توفي الباشا.

في يومه الأخير قام بجولة بسيارته الدودج، كانت ابنته تقود السيارة سافرة الوجه، بينما هو يجلس إلى جوارها، على ثغره ابتسامة شبه ثابتة، ابتسامة منعتقة من السنوات الخمس التي غابها عن مدينته، أشياء كثيرة أراد أن يقولها لأهل دمشق في إحدى مساءات عام 1928، بينما نسليهان قد بدت بقصة شعر قصيرة بالكاد تبلغ أذنيها، مع قبعة سوداء عميقة تغطي جبينها حتى الحاجبين، ترتدي معطفاً لونه أسود، تكاد قبته العالية تغطي ذقنها، بينما يصل طوله إلى تحت الركبتين بقليل، تلتمع تحته جواربها الحريرية التي لم تطفئ بياض جسدها.

لعل ناسلي وحدها علمت أن الباشا توفي بسبب الحب، عندما اختفت ناستيا من حياته، غادرت على متن باخرة متجهة إلى نيويورك، مع رجل روسي تعرفت إليه في اسطنبول، أرادت حياة جديدة لها، بعيداً عن ذلك اليوم الذي يتوفى فيه الباشا العجوز، ويتركها للعوز، فكرت بنفسها فقط، كما يفترض بها عقب الظروف القاسية التي مرّت بها.

وحده يوسف رأى تلك الرسائل التي ظلت ترسلها ناستيا لناسلي عقب وفاة الباشا.

في وقت متأخر لاحظ البعض أن يوسف كان يغيب عن دمشق لعدة أشهر متواصلة ثم يظهر فجأة، ويبرر غيابه بذريعة إدارة متاجر العائلة في أزمير. في ذلك اليوم الذي عادت فيه بنت الباشا إلى دمشق كان يكمن قريباً منها أينما تحركت. ثمة تواطؤ خفي، غير ملموس، غير معترف فيه، ليس بوسع أحد أن يقبض عليه، التواطؤ الوحشي، الضروري، البرّي، الذي كانت تحركه رغبة محمومة، رغبة توغل عميق في الحلم، تحتشد لتشكل ذلك الرابط الحارق بين ناسلي ويوسف الذي يتسلل وراءها ببراعة الظلّ.

* * *

عندما نزعت ثيابها قطعة إثر قطعة أمام يوسف، كانت تقف وسط سريرها، بينما هو يقوم بترتيب كلّ تلك الكتب التي حصلت عليها من ناستيا أورلوفا، باللغتين اللتين تجيدهما: الروسية والفرنسية. كتب لتشيخوف، وغوغول، وليرمنتوف، كتب لبلزاك، وألكسندر دوما، وستندال، وإميل زولا الذي لم تحب كتبه مطلقاً.

نزعت الجوارب الحريرية، مدّت إحدى ساقيها نحوه، وضعتها تماماً عند شفتيه، قبّلها، كمن اعتاد أن يقبل طفلة لعوب.

عندما نظر إلى المرايا التي تزيّن بوابات خزانتها إلى جواره، أعاد النظر إلى محبوبته وضحك، وهو يعود إلى ترتيب الكتب. اعتاد يوسف على كلّ غرور ناسلي، ومفاخرتها بجسدها أمام المرايا.

ترميه بقطعة من ثيابها، يبتسم بخبث دون أن يرفع بصره نحوها، كأنه اعتاد فعل ذلك لإغاظتها، فأين المجد لجسد جميل دون عيون تراه؟

«انظر، ألستُ أجمل من تلك اللوحات الأوربية التي تحكي لي عنها؟ ألستُ أجمل من الغبيات اللواتي يغتسلن في لوحات ذلك الرسام الفرنسي الداعر، آه نسيت اسمه.

انظر، ألستُ أشهى من تلك المومس الرخيصة التي خلعت ثيابها على أنغام البيانو في باريس؟ ألم تكن مسطحة الصدر والأرداف، مثل ناستيا أورلوفا؟

كان بين يدي يوسف كتاب راح يقلبه باهتمام، لمست الكتاب بطرف إصبع واحدة من رجليها، وهي تقول له:

«قرأته، رائع، لن أنساه ما حييت، أتعرف؟ هذا الكتاب الذي تعلّمت منه شيئاً ربما غيّرني، أو ربما أكّد من شرعية بعض الأفكار والأشياء التي اعتقدها عن هذا العالم. لن أنساه، «بتشورين» بطل هذه الرواية، إنّه بطلٌ لكلِّ الأزمنة.. الضابط الشاب الجميل المنفي إلى القوقاز».

يسألها يوسف وهو يقبّل طرف أصبعها مسايراً لإلحاحها: «ما الذي أعجبك فيه؟!».

تجيبه وهي تسحب كلتا ساقيها وتضمهما إلى صدرها وتعقد يديها حولهما:

«أنانيته، وتكبره، وتعجرفه، عدم إعجابه بأحد دون تقديم تبريرات، لديه من الثقة والاعتداد ما يكفي للإعلان عن نفسه دون أن يحسب حساباً لأحد. أغرمت بمن كتب هذه الرواية».

يداعب ركبتها بطرف أنفه وهو يقول: «أتعلمين من كتب هذا الكتاب؟ هو شاعر ومثقف كبير، تعرّض بسبب لسانه السليط لغضب قيصر روسيا ونفاه إلى جبال القوقاز.

هناك في تلك الجبال النائية، اختلطت شخصية بتشورين بشخصية مخترعه إلى حدّ مذهل. إنه البطل الورقي الذي يشبه كائناً آخر من لحم ودم، يعبر عن نفسه دون مواربة، فكان الحبيب الذي يتخلى عن حبيبته دون تأنيب ضمير، دون أن يشرح أسبابه السرية، الشاب الوسيم الذي يقول رأيه بالآخرين دون تجميل أو تلطيف. اشتهر بلا مبالاته وعدم اكتراثه بشيء غير ما يعتقده هو. وعندما تعرض «ليرمنتوف»، لموقفٍ مستفزّ، دافع عن غروره وكبريائه وإبائه، وأشهر سيفه في مبارزة تسببت بمقتله.

بلى، ليرمنتوف قُتِل تماما بذات الطريقة التي قُتل بها بطله بتشورين. بذات الروح المتحدية وذات الأنفة «.

تموء «شي شاه»، تغير من جلستها، تضطجع تحت طرف السرير، بينما ناسلي تتابع كلامها كمن يتبع بعينيهِ خيطاً لا مرئياً

يقود إلى درب خفي:

«ما أصعب أن نكون أنفسنا؟! الخطوة الأولى نحو الإحساس بوجودك هو أن تكون أنت نفسك دون زيف».

لا تنفك عن مباغتة يوسف بحركة مفاجئة، بينما تتكلم، كأن تعضّ أحد أصابع يده الممسكة بالكتاب، ثم تقول:

«لمراتٍ كثيرة أغرمت بأبطالٍ من الورق، لكن لم يحدث أن أغرمت ببطل يضاهي «بتشورين» سحراً وهو يمتشق سيفه ليبارز الآخر. النبالة هي أن نبارز الآخر بما نملكه، أن نبارزه بما لا يمكن أن يمتلكه الآخر، أن نقذفه إلى جحيم خساراته التي تسببنا بها فقط لأننا نزدريه».

*** * ***

يتوهج وجه «نور جيهان» وهي تستمع إلى الأسرار الحميمة التي تبوح فيها نسليهان، المتباهية بما تفعله تحت جنح الليل في مخدعها مع يوسف.

تحكي لها عن رجفتها، مشاعرها، النشوة التي تخنقها وتقطع أنفاسها، ذلك الجنون، الزلزال الذي يُحدثه جسد يوسف لجسدها، تلك الصدمة الرهيبة الجميلة من اللذة التي تجتاحها وتجعلها تزمّ عجيزتها كما لو أنها تختلج موتاً، عن تلك الحرقة بينما يتعارك الجسدان.

تحكي لها عن الطعم المالح لكتفيه، حيث تحب أن تعضّه، تحكي لها عن أمنيتها بمضاجعة يوسف في مكان بعيد، حيث لا يمكن لأحد أن يسمع صراخ انتشاءاتها، كانت تتمنى أن تمارس ذلك الشغف بحرية، بكل الأوقات».

لم تكن ناسلي تدرك أن ذلك البوح كان يقلق ليل ابنة عمها، التي تحمل «سرّها» الخاص الذي لم تجرؤ أن تطلع عليه أحداً، ذكرى ليلة غائمة بين ذراعي شاب وسيم، تكاد وسامته تتطابق مع وسامة يوسف، التي تقوم ناسلي، بوصفها بدقة رهيبة.

تبكي «نورجيهان» سرّاً؛ لأنها لم تمتلك قط جرأة ابنة عمها، التي تجيء بلا اكتراث تروي كلّ أفعالها، وكأنها تمدح ذاتها، على نحوٍ ما، بحيث يبدو بوحها أرعن، من جهة، وملغزاً من جهة أخرى.

مع الوقت غدا جسد يوسف المتخيل عذاب «جيهان» السري،

يتولّد طيفه ليلاً. معه تهيم في خيالاتها، تتوهم جسده، تتلمسه، تضنيها تلك «الشقشقات» التي ينبض بها فرجها، بدأب عصافير صغيرة تصخب بغياب أبويها.

* * *

يحب يوسف مراقبة ملامح محبوبته وهي تحكي له عن رحلة والدتها فرلان التي خُطفت من مستعمرة برتغالية ومن دير للراهبات. «من يدري قد تكون بيعت من قِبَل الراهبات عندما اكتشفن أنها تمارس السحر»، لتبدأ سيرة حياتها في البصرة، التي كانت تشتهر بتجارة الرقيق، حيث منازل كبار الضباط ومأموري الحكومة تعد مخازن آمنة تخبئ العبيد.

يتخيل يوسف عتمة تلك التعاريج المعقدة لشبكةٍ من السراديب، التي تشكل أقبية، وبنفس الوقت العالم السفلي الذي يضجّ بالعبيد، السراديب في معظم مدن العراق كانت عبارة عن غرفٍ مقنطرة، توضع تحت البيوت إتقاءً للحرّ صيفاً.

كان هنالك الناقوس الصغير الذي يوجد في زاوية من المنزل، بحيث حالما يُقرع تتجهز الفتيات لاستقبال زائر، والذي يكون عادة مشترياً محتملاً لواحدة أو أكثر منهن.

في ذلك القبو، الذي تغطي نوافذه بحصرٍ من القشّ الملوّن، ويزدان بديوان كبير موزع على ثلاث جوانب من السرداب. كانت تجتمع فيه حوالي عشرين أنثى يانعة من أماكن مختلفة، نوبيات وهنديات وحبشيات.

غالباً ما يكون النخاس غائباً، فتمرّ أيامهن وهنّ يحاولن التفاهم مع بعضهن باستخدام لغات مختلفة وإيماءات كثيرة.

أرغمن على ارتداء ثياب موحدة، كان عبارة عن قمصان قطنية واسعة لونها أزرق داكن تصل الركبتين.

معظم الفتيات كنّ مبتهجات بحالهن، بل وراضيات أكثر مقارنة بالحياة السابقة التي كنّ يعشنها في كنف أهاليهن.

يحصلن على الطعام بانتظام، ويحرص النخاس على استحمامهن ونظافتهن.

معظمهن مررن من بين أيدي القهرمانة العجوز، التي لا تُشاهد هناك إلا في حال تمّ جلب فتاة جديدة إلى القبو.

حصلت في الحال فرلان على تصنيف جيد، عندما تفحصت القهرمانة جسدها، الذي يتميز بنعومة مخملية، وعرض وركها، ونتوء عجيزتها، وأنامل يديها الناعمة، حيث تخلو الأصابع من العقد. كانت فرلان الابنة الصغرى في عائلة الحاوي، واقتصر عملها على المساعدة في حبس الحيّات وإطعامها.

اعترضت القهرمانة على كتفيها البارزين، بينما الثديان نالا رضاها، وأخيراً تفحصت فمها وأسنانها ولسانها وأعلنت عن رضاها الكامل. تلك العجوز عادة تضع السعر النهائي وبدقّة للعبدات. كذلك تحرص على إطعامهن وجبات فيها كميات وافرة من السمن لكي يسمن، وتصبغ أصابع أيديهن وأرجلهن بالحناء.

معظم الفتيات في القبو كنّ يعرفن أن شكل الفم وضيقه وتناسب الشفتين السفلى مع العليا يدلّ على فرجٍ يرغبه الرجال، ببساطة ثغر المرأة ينبئ عن ضيق فرجها أو اتساعه.

لهذا كانت كثير من الفتيات يذهبن إلى الأعمال الشاقة التي تودي بحياتهن خلال خمس أو ست سنوات من العمل المضني، بسبب ثغور كبيرة تتجاوز ذلك الخط الوهمي الذي ينزل من حافتي الأنف، والذي يفترض أن لا يتجاوز حافتي الفم، كذلك، كلّما ابتعد ذلك الخط عن جانبـي الثغر كان الحظ أقل بالنسبة للجواري.

في ذلك السرداب، كان على الفتيات تحمّل تلك الاختبارات الوسخة من قبل المشترين المحتملين. وذلك الاختبار تحظى فيه الأجمل بينهن.

هكذا كان على فرلان أن تُقاد إلى مكان مضيء من السرداب ليتم فحصها، إذ يبدأ الشاري برفع جفونها، وتلمس أسنانها، وتحسس بضاضة نهديها، لا يخجل من فعل ذلك مراراً، وعندما ينزل إلى الجزء السفلي من جسدها، تبدأ عملية الألم الحقيقية، حيث يقوم بعصر أردافها وعجيزتها، ويكتفي برفع الثوب لرؤية فرجها بلمحة سريعة.

الشاري يفعل كل ذلك وغالباً لن يتفق مع النخاس على السعر لأن المبلغ يكون عالياً.

كان على فرلان تحمّل كلّ تلك الملامسات الفظّة اليوميّة لجسدها دون أن تعترض، بل عليها أن تبتسم وتعود بعد عملية الفحص وتجلس بين باقي الفتيات كأن شيئاً لم يكن.

لم تنس فرلان قط السعر الذي وضعه النخاس لبيعها: «9000»

مجيدي تركي.

لم يكن يمرّ يومان أو ثلاثة دون أن تُباع فتاة زنجية رقبتها قصيرة، وكتفاها ضيقان وأقدامها كبيرة بسعرٍ بخس، وسيكون مصيرها العمل في إحدى المزارع لبقية حياتها التي غالباً ما تكون قصيرة بسبب العمل الشاق.

تختلف حياتهن في الليل. يُسمح لهن بالنوم على سطح المنزل الكبير، حيث تفوح رائحة الغليون الذي لا يفارق فم النخاس.

يحضر له كل ما يلزم من شاي وتبغ، خصيّان شابان لونهما جوزي غامق من أصل أثيوب-ي. في الوقت الذي يكونان قد مدّا الفرش المهلهلة على السطح لتنام الفتيات، وحده النخاس كان يتنعم بالنوم تحت ناموسيته المخرمة، ويتفادى غزو البعوض الذي تضج به الأنهار المستنقعية التي تحيط بالمكان.

*** * ***

أبطل موت محمود باشا ضرورات كثيرة كانت تكتنف حياة نسليهان.

لم تعد مطالبة بوفاءات أخرى، من يستحق الوفاء بعد موت الأب؟ لا أحد. هكذا كانت قناعتها النهائية بشأن أخلاقياتها القادمة. نعم هنالك أخلاق جديدة لكل زمن جديد، كل شيء ينتظر تقشير بشرته وجلده، لينمو ويكبر ويتحرك. صوّبت قيمها القديمة بأخرى جديدة.

رمت مرة أخرى كلّ «الوفاءات» المحتملة وراء ظهرها. لن تكون بعد ذلك مرتبطة بشيء، كل شيء يمكن أن يتبدّل، المكان، الزمان، الطريق، المنعطف، الخارطة، المخططات، الأسماء، الروائح، ويمكن محو تلك الكذبة التي يحدث للبعض أن يعيشوا كل حياتهم عليها: «كل شيء على مايرام».

كانت تتوق إلى مدينة بلا أسوار، بلا شروط، بلا مطالب، بلا ماض، بلا تاريخ إذا أمكن. كانت تريد التخفف من كل شيء، من اسمها، من كونها «بنت الباشا»، من كون صاحب العطوفة ناظم بيك، ابن عمها.

لم تعد ترغب بترميم شيء، لا بعلاقتها مع أقاربها، ولا بالأقاويل ولا بالشائعات التي تتناقلها الألسن عنها. كانت تريد تفكيك كل شيء، لكن على طريقتها، بلغتها، بأسلوبها، بشعوذاتها،

بشرّها، بنقمتها.

رفضت نسليهان أن يكتب أحد آخر حكايتها، أرادت حبكة حرّة لحكاية حياتها.

أرادت أن تسلك دربها السرّي المفضي إلى مكان لا يهدد بسجنِها أو يجبرها على ارتشاف قهوة صباحها من وراء نافذة مغلقة.

* * *

في ذلك المساء كانت «شي شاه» تراقب صاحبتها وهي تسدل العباءة السوداء على جسدها العاري، بينما تنبعث من عينيها تلك النظرة التي تتقنها القطط والنساء: نظرة، من ينتظر وقوعك في الفخ.

عندما غادرت ناسلي القصر كانت الحبوبة آسيا تردد صلاتها باللغة الآرامية: «بشمات هي رب-ي»، «بشم» يعني بسم و«هي» يعني الحي، رب-ي الكبير والعظيم.

هل قرأت ناسلي شيئاً من تعاويذها في ذلك المساء؟ أم إنها غادرت متسلِّحة فقط بجسدها العاري تحت العباءة؟ أم إنها رسمت ناظم على جدارها، كما كانت تفعل بحري، مع عمر الفزاني؟

حالما أمسكت بالورق الأبيض الناصع وهمّت بكتابة طلاسمها عليها، رسمت، نعم رسمت ولم تكتب، رسمت تلك الطلاسم التي علّمتها رسمها، بحري، لتقوّي إرادتها.

للحال تحولت الورقة إلى ذلك الجدار الطيني لغرفة المؤونة وفي ركن معتم من منزل «زبيدة» في طرابلس، حيث رسمت «بحري» شكلاً يشبه عمر الفزاني. وراحت ترقص رقصة الأفعى وبدأت برميه بالإبر. استحضرت ذلك التصميم الذي ورثته عن أبناء قبيلتها، وهم يرقصون قبل عدّة ليال، تحضّراً لخروجهم إلى المعارك، أوعندما كانوا يغادرون لصيد الوحوش.

كانوا يتعاملون مع الطرائد كما يتعاملون مع أعدائهم. فقبل اليوم الذي يخرجون فيه لصيد الوحوش، يقضون الليل وحناجرهم تصدح بالأناشيد، حيث تلك الكلمات التي لقنتهم إياها شريعة الغاب، وأضافوا عليها تعديلاً بشريّاً أصيلاً: الخدعة. يقضون الليل بطوله وهم يغنّون أهازيج تشيد بالتماسيح، والأسود، والنمور. يمدحون تلك الوحوش الضارية، وبنفس الوقت يلمّحون إلى ضعفها، ويؤكّدون لطفها، كما لو أن تلك الوحوش شابات صغيرات. يفعلون ذلك

بكلماتٍ، وعبارات قوامها التزلّف والمداهنة، ثم يجتمعون حول الوحوش المرسومة على التراب، قرب النار، ويشرعون بالرقص، رقصاً عنيفاً مفاجئاً، وبرؤوس الحراب، يهشمون رؤوسها وبطونها، ويُخرِجون أمعاءها، إلى أن تتلاشى الرسوم. في صباح اليوم التالي، لن يفشلوا بقتل الطريدة، سوف يقتلون الضواري، ويأتون بها مجندلة.

هكذا علينا أن نتعامل مع أعدائنا، نخدعهم ثم نتغلب عليهم.. ونقتلهم.

عندما نخاف نلجأ للخداع، نرسم صورة من نكره على ركن صغير من جدارنا السريّ، نضرّجه بدمه، وجسده نمزّقه بكلّ ما أوتينا من شهوة الحقد. نعم الحقد شهوة لا تقلّ قوّة أو جمالاً عن شهوة الحب. هل الحياة إلا اشتهاءات متتالية لا تعرف الارتواء أو الانتهاء؟!

هكذا كانت «بحري» تنام دون قلق. فعمر المرسوم لن يهرب ولن يدافع عن نفسه، فهو لن يتحرك بعد الآن، تعرف أن ذلك يسمى سحراً، وفي مكانٍ إسلامي عقابه كبير. لكن السحر عندما يُكتشف أمره يبطل مفعوله؛ لأنه قائم على الخداع.

كل شيء كان عادياً في ذلك المساء: الأضواء، روائح الأكل والحلويات المنبعثة من منزل عمها.

لم تكن زيارةً متوقعة، أيضا كانت متجلببة بملاءة من عدة طبقات لم يكن من عادة ناسلي ارتداؤها.

تحدثت كثيراً ذلك المساء، حديثها كان حرّاً مريحاً مدهشاً. حَكَتْ لهم عن بعض ما زعمت أنها شاهدته في رحلتها إلى اسطنبول، في حيّ جالاتا تحديداً. وصفت الجوامع التي زارتها وصفاً دقيقاً، وأسهبت بحديثها عن البازار الكبير وحوانيته، ومطاعمه، ومقاهيه، حماماته.

قبيل أن تقوم بتلك الزيارة كانت قد أرسلت صندوقاً مليئاً بالهدايا: أقمشة حريرية، شالات، أحذية مطرزة، عطور، مرايا.

عندما كان ناظم بيك يعبر الباحة باتجاه غرفته، لم يخطر في باله رؤية ناسلي تنتظره في العتمة تحت شجرة الليمون.

كان قد همّ بفتح باب الغرفة، عندما وَمَضَ في عينيه ذلك البياض الذي سبق وأن رآه، الجسد الذي هَتَكَه ببصره قبل حوالي خمس سنوات.. رأى ناسلي تقف وراءه، وقد نضت عنها عباءتها،

ونظرت إليه تلك النظرة الناعسة المغوية مع ابتسامة رقيقة، موشومة بتلك اللحظة التي عرّاها فيها.

مرّت لحظة وحشيّة من الانشداه والمفاجأة، لحظة دقيقة وطويلة إلى حدّ كاف بالنسبة إلى ناسلي، أو بالنسبة إلى أنثى تزهو بعريّ صارخ، بدا مزيّفاً غير حقيقي، ليس أكيداً، من المستحيل أن يكون متاحاً، عدوانياً وجذاباً وطاغياً، أنوثة فائقة، مدوّخة، محترِفة .. رغم قرب المسافة الواقعية، لكنها المسافة الزمنية هي التي كانت تفصل جسد ناسلي عن توحش يدي ناظم بيك.

عندما أراد لمس كتفها، ليتأكد من حقيقة ما كان يلتمع أمام ناظريه، كانت قد أعادت إسدال العباءة بسرعة متقنة، وكأنها تدربت على فعل ذلك لعدة مرات.. ضحكت بخفوت وغادرته عائدة إلى صالة الاستقبال وكأن شيئا لم يكن، وكأن ما فعلته كان حدثاً عابراً عاديّاً، يشبه أن تستيقظ صباحاً وتتناول قهوتها، أو تطعم هرّتها.

أحدثت ثلماً في قلبه، غادرته وهي تدرك أن تلك اللحظة لن تكفّ عن الصراخ، ستوقظه في عزّ نومه، وتخترق كل ساعات يقظته، لن يغمض عينيه أو يفتحهما إلا ويراها، سيصبح هشّاً، وصورة جسدها ستسجل حضوراً فاحشاً مبرّحاً في ذاكرته ومخيلته. شهوته كانت حادّة لامعة، كسكين مسلخ.

دمرت نومه.. عقب ليلتين من الأرق المتواصل أدرك أنها نجحت بالاستيلاء على أرضه، وأعلنت انتصارها التام. بعثرت تركيزه، أكله الشك بمدى واقعية تلك اللحظة، بحقيقة أن تلك الفتاة المراهقة التي مزّق ثوبها قبل خمس سنوات هي بذاتها جاءت لتتجرد من ثيابها من تلقاء نفسها!

*** * ***

تستمتع نسليهان بعري جسديهما، تختلط الأذرع العارية بالسيقان، تتوقد تلك العاطفة المشبوبة التي تجمعها مع يوسف، فتنشب عاصفة من الشمشمة، والمصمصة واللحس. لا مفرّ من أن يرتوي الجسدان بلعابهما المتبادل، وذلك الجنون المتسلل لأبسط وأصغر وأدق أجزاء الجسد.

كائنان حيوانيان جميلان، يتنعمان بالحب، نسليهان، تروي ليوسف عمّا كان يحدث لأمها تحت تلك الناموسية على سطح منزل في البصرة:

«فرلان تتنعم بتلك الناموسية على نحو ما، في الليل يجبرها

النخاس على أن تشاركه فراشه، تتحمل مداعباته الفظّة لكلّ جزءٍ من جسدها، وأخيرا يلوثها بمنيه الذي يقذفه بين إليتيها بعيدا ما أمكنه عن فرجها، وعندما يهتاج كثيرا فهو سيولج عضوه في دبرها، ويمكنها أن تعبر عن ألمها بصوت عالٍ بسبب نقيق ملايين الضفادع، وعواءات بنات آوى التي تضجّ بها غابات النخيل المجاورة.

فعل معها ذلك مرتين فقط، فهي الأفضل بين بضاعته، ولم يكن يريد المجازفة بتسعة آلاف مجيدي؛ فقد يكتشف أحد الشارين الحذقين أمره، فعمد إلى جلب زنجية عمرها ثمانية عشرة وحشرها معهما بالفراش، يعانق فرلان ويقبلها ويمصمصها، وعندما يريد أن يولج، فإنه يفعل ذلك في دبر الزنجية.

كان يصرّ على بقاء فرلان في فراشه حتى الصباح، لأنه اعتاد النوم معانقاً جسداً أنثوياً بضّاً، وعادة يستمر ذلك حتى تُباع الفتاة، أو تُجلب عبدة أخرى أكثر بضاضةً وامتلاءً.

ذات يوم، بعد حوالي شهرين من القبوع في ذلك السرداب، وسماع رنين الناقوس الحديدي في المنزل، وتحمّل عمليات الفحص المقززة، حدث ما لم يكن بالحسبان. يبدو أن ذلك النخاس لم يدفع عمولة كافية للمأمور التركي في البصرة، فكان أن اجتاح رجاله المنزل بذريعة أن تجارة الرقيق ممنوعة.

الجميع يعلم أن تجارة الرقيق ممنوعة رسمياً لكنها كانت رائجة في السّر، وحالما يقصّر أحد النخّاسين بدفع العمولة المطلوبة، تتمّ مصادرة كلّ ما يملك من عبيد في سردابه.

حالما دخل الجنود إلى السرداب، فرزت الفتيات، ولم يكن خفيّاً أنّ فرلان هي الأفتح لونا والأجمل.

وجدت فرلان نفسها مع معظم رفيقاتها في قبو سفينة متجهة إلى بغداد، ومع انبلاج الفجر، كانت تخرق مسامعها عجلة السفينة التي تجدف في نهر دجلة.

*** * ***

(5)

(كل رجل ليس وحشاً، أو عالم رياضيات، أو فيلسوفاً مجنوناً، هو عبدٌ لامرأة ما)

جورج إليوت

(لقد شربتُ سمّ العشق،

فما الفائدة من أن أتناول أي دواء

إنهم يريدون تقييد قدميّ بالأغلال،

فما الفائدة..

عندما يكون قلبي هو الذي جنّ)

جلال الدين الرومي

لا بدّ من عدسة دقيقة لأجل التقاط ملامح تلك الحياة الخفيّة التي كانت تعيشها ناسلي.

تبدو تلك الصور التي يلتقطها البعض مثل مخطوط لمستقبل تنفذ إليه أشياء لم تحدث بعد، لكنها ستحدث عاجلاً أم آجلاً.

كانت صورة نسليهان التي وضعتها في إطار الخشب المطعم بالصدف مميزة، أي لا تفتقد ملامح وجه يمتلك قوّة غزيرة من التعابير. تتداخل في عينيها الرقة مع الجدة تداخلاً لطيفاً، بينما يظلّ الذكاء سيداً واضحاً في ملامحها، مضفياً حالة من اللغزيّة لأنثى ليست من أولئك الذين يشغلون فقط المكان الذي سمح لهم به الآخرون.

يُدرك يوسف أن ما تحصل عليه النساء من متعٍ وملذات يُلمح على ملامح وجوههن وحتى في مشيتهن وتصرفاتهن.

لم يخطر على بال قريبات نسليهان، وكلّ تلك النساء اللواتي كانت تقابلهن في الاستقبالات، أن سرّ مشيتها المتأنية، وحالتها التي تبدو دائماً بحال راضية ومنشرحة الصدر، لأنها كانت تأخذ كفايتها من اللذة، والاستمتاع بالجنس مع رجل تشتهيه. كانت ناسلي أنثى تستمتع بالحب.

كل النساء غيورات وناقمات إذا لم تُطفئ لهفتهن إلى الرجل. جميعهن كارهات وشريرات، إذا ظلّ ذلك الجوع للحبّ قائماً، وهنالك الجريئات اللواتي يدركن لسببٍ ما، ومبكر، أن الحياة ستمرّ طويلة على ذلك الجوع الذي لا يتغير ولا يخفّ بينما مع الوقت، تزداد المسافة بينه وبين الشبع.

*** * ***

عندما طرق ناظم بيك بوابة القصر، كانت ملامحه تشي بأن أحداً ما جاء صارخاً يطلب النجدة، تجاهلت طرقاته العصبية، كان الوقت صباحاً، كانت تعلم أنه سيعود قريباً، طامعاً بأن تحلّ عليه بركة موافقتها.

عاد مجدداً في ذلك المساء، أيضاً تجاهلت حضوره.

مساء اليوم التالي عاد للمرة الثالثة وفتحت له بحري.

خاطبته نسليهان من شرفة الصالة العلوية المطلّة على باحة الحرملك. تظهر في عينيها تلك الرغبة التي توشك فيها أن تقتل أحداً، أو أن تأخذ شيئاً لا تملكه، نظرة من يملك براثن، ومخالب، وأنياباً تكفيه ليتحدّى كلّ القوانين، وكلّ سلطات الأخلاق، قالت له بعد صمت تعمدته:

«أهلاً صاحب العطوفة ناظم بيك».

كان مدركاً للمعاني الحقيقية المخبّأة بين ثنايا كلام ابنة عمه.

في هذه الأثناء كانت الهرّة «شي شاه» تتمشى في الباحة الأرضية تماماً كشيء يشبه حريّة وعبثية ولا مبالاة الأهواء.

كان مستميتاً، يريدها.

أتقنت التربص بجوع حيوان برّي، كل ما فيها كان يشي بما تنويه، كل شيء يهمس: إلى المعركة الآن، إلى عرض البحر، إلى المخاطر، إلى عمق الصحارى، إلى متاهات الغابات، إلى القتل، إلى الجريمة.

تتحرك الهرة، تتحسس ساقيه، تسهم بقسطها بإرباك البيك الذي كان يضخّم هواجسه، خوفاً من أنثى تشدّه إليها، تلك الخيوط الغامضة التي لا تتحرك دون مصادقة ذلك الشيء اللامتعين: القدر.

*** * ***

كأرض قفراء سعيدة بالمطر، كان حال نورجيهان، عندما أعلن شقيقها ناظم بيك قرب زفافه على ابنة عمّها نسليهان. كانت مرعوبة من فكرة أن يكتشف ناظم التاريخ الشهواني لجسد ابنة عمه. كانت تريد لذلك الزواج أن يتمّ، تريد أن تشهد نهاية حقيقية لكل تلك اليوميات الجسدية اليومية التي كانت تتبجّح بها ناسلي المرعبة. والأخطر من كل ذلك، السرّ الصغير الذي احتفظت به نورجيهان لنفسها: «يوسف».

عندما طلبت جيهان من ابنة العم الجسورة والمتباهية بمضاجعتها ليوسف الوسيم أن تراه، لم يكن ذلك صعباً، فقط، كان عليهما أن تقوما بجولة في سوق الحميدية لشراء بضعة أمتار من البروكار.

كانت جيهان مثل موجة ترتدّ على ذاتها بعنف عندما لمحته.

كان هو بذاته الشاب الذي أحرقها بجسده، قبل سنوات، ذات ليلة باردة في مدينة أزمير، تحديداً في ذلك الركن المعتم من محل لبيع البروكار الدمشقي في سوق «كوناك بيير».

قبل أن تراه كانت لديها كل المبررات لتعاستها، وهي تسمع ناسلي تتحدث عن مشاعرها دون خجل، تتكلم عن استمتاعها ولذّتها المتبادلة مع يوسف. عشقت نورجيهان سرّاً ذلك الرجل قبل أن تراه.

حالما رأته سقطت في مياه عميقة ومظلمة.

الخمار المسدل على وجه جيهان حماها من شرّ أكبر، بينما نسليهان كانت تستمتع بتنفس الهواء دون خمار.

كانت تمشي سامقة، رغم مياه دمشق المضطربة، بعد أن هزّت سكينتها تظاهرة مجموعة من النساء في ساحة المرجة وهن يرفعن الأغطية عن وجوههن للمطالبة بحقوقهن.

قبل عدة أيام، كانت قد تعرضت لمضايقات اعتادت عليها إثر إصرارها على التجوّل في أسواق دمشق سافرة. غدا الجميع يعرف أنّ كريمة المرحوم محمود باشا تتجول بين وقت وآخر بسيارة الدودج، فيما تعتمر قبعة سوداء تصل أذنيها المزينتين بأقراط فخر الموقرات المرحومة توركان خاتون.

أغلق ذات مرّة صاحب محلٍّ للأقمشة محله اعتراضاً على سفورها. لم تكن وحدها التي تتعرض لمثل تلك المضايقات، هنالك

عدد معقول من بنات العائلات المسلمة أشهرن تمردهن على ركود مدينتهن أمام الحداثة.

في ذات الليلة التي خرجت فيها مظاهرة النساء في المرجة، استأذن شيخ جليل لمقابلة الآنسة كريمة المرحوم محمود باشا.

أراد أن يهديها إلى الطريق الصحيح، وشرح لها سوء ما تفعله، وعدّد لها كل عذابات القبر التي تنتظرها، ورغّبها بنفس الوقت بفضائل الحشمة والوقار.

سمعته بلباقة وذوق، حافظت على صمتها، ذلك الصمت البارد، عندما يتحوّل الفم إلى كسرة رخام صلبة، الصمت الذي يتقنه، ويلوذ به كلّ الخارجين على القانون، الجانحين، المغامرين، أولئك الذين لا يجوبون الطرقات المعروفة، إنما يحبون شقّ طرقات جديدة يمتلكونها، أولئك المؤمنون بسعادة تقدمها الحياة على هذا الكوكب الجميل، لا ينتظرون الموت ولا يفكرون فيه، لم تجرؤ يومها أن تقول له عبارتها الشهيرة: «الحياة للأحياء، والموتى للموت»، لكنها كانت تعلم أنها تنفذها، الأفعال شيء مقدس أكثر من الأقوال.

*** * ***

يوسف يقلّب تلك الأوراق التي ملأتها برسوماتها البسيطة والواضحة.

كانت رسومات شخص تهيمن عليه فكرة «الحريّة». رسمت كل البيوت بلا أبواب ولا نوافذ ولا حتى أثاث، كانت تملأ منازلها المرسومة على الورق بالأحذية والقطط.

«لماذا كل هذه الأحذية؟»

حتى تكفي الدروب التي أنوي أن أقطعها، أريد المشي كثيراً والتنقل والارتحال. أريد أن أرى كل شيء.

ممتاز ياستّنا، والقطط؟!

تضحك وتجيب بغنج: «لأني أكره الكلاب. أكره نباحها الدائم بذريعة وفائها لأصحابها». يشاركها يوسف الضحك وهو يسأل مرّة أخرى، وهو يدرك أنّ حبيبته تتملص من الإجابة: «بجدّ قولي..»، وكأنه يخشى أنها تنوي القيام برحلة حقيقية بعيدة لا يرافقها فيها أحد، يخاف أن تأتي لحظة تطلق فيها النار على كل من حولها وتغادر مع هرّتها.

تجيبه بلهجة مراوغة ومتسائلة: «ربما لتذكرني بنفسي، «شي شاه» في الرسوم هي أنا، انظر ألا ترى أنها في كل مكان؟ نعم إنها تعاين الخارطة لتبحث عن رأس الخيط».

يبحث يوسف في ثنايا كلامها الغزير عن تلميحات وإشارات؛ لعلّه يفهم أكثر تلك المرأة العارية، المتباهية، التي تنطق بكل شيء وكأنها تعرف ماذا يخبئ الغد، تشرب قهوة صباحها باستمتاع وتروٍ، وكأن كل صباح يمكن أن يكون صباحها الأخير، بينما تتكلم كشخص مؤمن بغده البعيد.

كان يوسف كرجل واعٍ ومجرّب وعارف يدرك أن شهوة نسليهان الكبيرة لجسده هي حالة «تشهٍّ» تعيشها وتبحث عنها بنفسها، من خلال جسده.

يعلم أنها امرأة تسعى للمتعة، وتنصت لأبسط صدى تُحدِثه أصغر قبلة ممنوحة لها.

كان بينه وبين نفسه يحاول رسم «البورتريه» العميق لصورتها الجميلة والمتشهيّة. ذلك لم يحدث مع حمد الدرويش، لم ينجح الدرويش في استكمال صورة نسليهان، ظلت مقلقة ومحيرة بالنسبة له، لكن مع يوسف اكتملت اللوحة الرائعة لها بكل تناقضاتها واشتهاءاتها، مشاعرها السرية وأفكارها الخطرة، والاحتمالات التي يمكن أن يؤدي إليها طموحها المتوحش للحرية، للحب، لشقّ الدروب.

رأى يوسف الوجوه الكثيرة الخبيئة وراء ملامحها الجميلة، رأى ذلك الوجه الحقيقي الذي لا يُرى مباشرة. العينان المنهكتان بالأحلام. الشفتان الملغمتان.

أنثى يمكن أن تمضي بعيداً وراء شهوتها للحياة والجنس ولكلّ متعة ممكنة على هذه الأرض.

تلمّس يوسف بذكاءٍ منفرد ذلك الشيء الملتبس والغامض، التقط الشيء الأكثر نأياً وعمقاً في ثنايا شخصيتها المحيّرة لمن حولها.

أصبحت مع الوقت أكثر التزاماً بالكتابة، استمتعت بتلك العبودية التي يشعر بها من يمسك ريشة الكتابة، عبوديته أمام الورق، كتبت كل شيء، كل ما تتذكره عن أمها فرلان، وعن دادا بحري وعن الحبوبة آسيا.

شرحت له بدقة، وحكت، وقرأت ما كتبته عن رحلة أمها في عالم العبودية، وكأن يوسف كان مع فرلان في قاع تلك السفينة التي ستوصلها إلى بغداد.

(6)

(هناك سعادة واحدة في هذه الحياة، ألا وهي أن تُحِبّ وتُحَبّ).

جورج صاند

من دون أن تتخفّى أو أن تتخفّف من حمولة أهواء جسدها، جلبت ناظم بيك طوعاً إلى فراشها.

تعاملت معه كمن يقدم هبة عظيمة، أذهله تدفقها، أطاحت به، اختطفته، كان يعتقد أنه لن يفعل شيئا بارتباطه بها غير الانتقام. لكنها حوّلت رغبته الناقمة على جسدها إلى قُبَل عارمة غمرتها بالجنون الذي يلزمها لتبلغ لذّتها، علّمت أصابعه كيف تلامس مناطقها الحميمة، كيف تدفعه لتفجيرها باللذّة. كانت تدرك أنها تفعل أسوأ ما يمكن أن يفعله عاشق. خانت جسد يوسف.

للمرة الأولى مذ عرفت يوسف، أغلقت الباب في وجهه.

تتكور شي شاه قريبا من إحدى ساقي ناسلي التي أعلنت ببساطة كاملة موافقتها على الاقتران بناظم. يومها، هل اقتنع يوسف أنها فعلت ذلك لتضمن نصيبها من الورثة؟ أملاك الباشا بقيت بعد وفاته في خطر. لماذا لم يضمن لناسلي أن ترث كل أملاكه كما يتوقع من أب محب لابنته كما كان معروفا عن الباشا الذي لم يكن يحاسب ناسلي على شيء؟!

ما الذي كان غائباً عن ناسلي حقاً؟ تلك الأقاويل التي ترددت في دمشق حول حقيقة أن فرلان لم تكن مخلصة للباشا، وأن ناسلي تحمل ملامح جورجية ليس بسبب جدتها الروسية توركان خاتون، إنما بسبب الطبيب الروسي الذي كان يقيم في دمشق، وقبيل مولد ناسلي قُتِل بظروف غامضة، قيل أنهم لصوص.

هل كانوا لصوصا أم أن هنالك أحد لا يريد وجوده فوق هذه الأرض؟! هل حقا أن فرلان كانت تخطط للفرار معه إلى وطنه مع الطفل الذي كانت تحمله في بطنها؟!

تتمطى الهرة شي شاه، وتغير مكانها، مثل كل القطط التي تغير أمكنتها لأسباب غير مرئية، لم تجرؤ ناسلي على مقابلة

يوسف، كتبت له: «سيبقى هنا القلب الذي لا يستريح. رغم كلّ بَخْتَرتي وغروري، ينبغي أن آكل الحصرم الذي يتركه لنا الآباء، لا يمكننا أن نكون مع بعضنا قط في العلن، طالما أني خُلقت مسلمة وأنت خلقت يهودياً، كيف يمكنني تحمّل خسارة كهذه؟! هذا رعبٌ، هذه جريمة لا بدّ لأحد منّا اقترافها».

*** * ***

تحوّلت حياة صاحب العطوفة ناظم بيك إلى ليلٍ ملتهب بجنون جسد ناسلي، ونهار أفلت منه الهدوء، شكوكه وظنونه بابنة عمّه التي تتسلط عليه، تتعرّش، ترطّب جفافه، تحيّره، وهي تبتسم تلك الابتسامات التي لا تتقنها غير العذارى. تتصرف ببراءة كاملة، منحت نفسها كل الحقوق اللازمة لتعيش يومها بهناء.

لا سلام ممكن بعد الآن .. كان يعلم ذلك تماماً رغم هدوئها التام.

ترتدي أجمل ثيابها. تتنقل حوله وهي تُشعّ بجمالها المنتصر، وكأنها تنخرط في ضربٍ غامض من العبور إلى ضفّةٍ تجهلها، لكنها تحتاج إلى كلّ «العِناد» الذي يمكن أن يوجد بداخلها لتبلغ وجهتها.

*** * ***

إذا كان الحب يحدث في كل مكان، حيثما ثمّة امرأة ورجل، حيث توجد الشهوة اللازمة لتحريك كل شيء: الكره، الغدر، الخيانة، وكل تلك الأشياء التي تحين ساعة حدوثها، في توقيت فشلت البشرية بالعثور على اسم له غير: «القدر»، سيحدث دائماً شيءٌ يشبه ما حدث مع فرلان.

لم تكن ناسلي تتخيل وهي تقرأ ليوسف ما دونته عن رحلة والدتها:

«عندما وصلت السفينة إلى مرساها على الضفة اليسرى، قرب الجسر العائم، انتظرت الفتيات عدة ساعات ليتقرر مصيرهن.

من الكوة راقبت فرلان الرجال وهم يدخنون الغلايين، وعن بُعد تفحّصت ثياب الرجال الذين يتحركون في الشوارع المرئية لها عبر كوّتها، بدا واضحاً أنّ المدينة تعجّ بجنسيات مختلفة، وجميع النساء ملثمات، والأطفال عراة أو نصف عراة، خمنت أن ذلك هو النصف الفقير من المدينة.

قبيل مساء ذلك اليوم بقليل، حُملت فرلان مع اثنتين فقط من رفيقاتها على ظهر قارب برفقة دركيين، ثم ما لبثت أن مشت مخفورة بحراستهما عبر بازار بغداد. قطعت شوارع ضيقة كثيرة الالتواءات، سمعت الدركيين وهما يتحدثان عن والي المدينة، الباشا الذي أحضر من بومباي عربة جديدة لكن بالكاد استطاع حوذيه قيادتها، حتى نالت العربة باهظة الثمن نصيبها من التلف بسبب الأزقة الضيقة.

بسبب غضب الباشا، كانت شوارع بغداد المحيطة بالسراي قد تحولت إلى ورشة من التهديم والصيانة بنفس الوقت، لتوسيع الأزقة الضيقة بحيث تسمح بمرور عربة الوالي.

لم تكن المسافة طويلة بين الجسر العائم والسراي، خلال مسير أقل من نصف ساعة وجدت نفسها في ما بدا من الخارج أنه قصرٌ جميل، لكنّه من الداخل كان يشبه ثكنة ضخمة للفرسان.

كان المكان يضجّ بالخصيان والجواري من البيض والسود..

لم تكن تتوقع ذلك العدد الغفير من الخدم والرقيق.

استلمتها قهرمانة السراي، وطلبت منها المبيت في غرفة ضيّقة، أثاثها من خشب السنديان، إنه الامتحان الذي تمرّ به كلّ الجواري المزمع إرسالهن لخلوة الوالي. النوم على سرير من خشب السنديان.

بعد مرور شهر يُفحص ذلك الخشب، لأنه سينبئ من خلال تغيرات بسيطة تدركها العين المجرّبة والحذقة، وتلك التغيرات تدل على ما قد تحمله الجارية من أمراض وراثية خطيرة، أو أية أمراض جلدية معدية.

إذن المهمة واضحة: الباشا يبلغ من العمر سبعين عاماً ولم ينجب، ومتزوج بأربع نساء. الكبرى عمرها اثنان وعشرين عاماً، والصغرى بالكاد بلغت الرابعة عشر.

لكل زوجة حوالي خمس جوارٍ، مهمتهن تسليتها والعناية بها.

خلال شهر لم تلمح الباشا أبدا، إنما كانت تسمع عن قدومه، عندما يتحوّل الحرملك ليّلاً إلى خليّة نحل من حيث النشاط والحركة. يُبخّر المكان، ويُحضّر الطعام، وتتزيّن النساء والجواري كذلك.

كان يضاجع زوجاته بانتظام. والجميع يعرف أنه قبل مرور عام

يستبدل إحداهن، وغالبا ستكون فرلان هي بديلة الزوجة الكبرى.

من نافذتها الصغيرة المطلّة على فناء الحرملك، راقبت جميع الإناث الموجودات.

كان من الواضح لها أن القهرمانة العجوز وحدها مع بعض الخصيان كانوا يعرفون بأمر وجودها. ذلك يجنبها مكائد الزوجات التي تنتهي غالباً بدسّ السم للجارية الوافدة حديثا.

تمرّ النهارات ببطء شديد، تراقب الزوجات وهن يدخنَّ نرجيلاتهن.

رغم الهدوء العام الذي يخيم على جوّ الحرملك غير أن النساء الأربعة كنّ حريصات على نيل رضى الحاكم المدني والعسكري لإقليم العراق العرب-ي، الذي هَو واحد من أهم أربعة مارشالات في السلطنة العثمانية.

عندما سألت أحد الخصيان الذي يتكفل بجلب طعامها، عن الباشا، وَصَفَ لها الباشا.

«إنه رجل قوي، سافر إلى أوروبة كثيراً، وقد أنهى علومه هناك ويتحدث التركية والعربية والألمانية والفرنسية والإنكليزية، كما أنه لا يتحرك مطلقاً دون حراسة، يحيطه بشكل دائم جنده وتابعيه وخدمه».

لم تكن تخمّن أن العالم يمكن أن تكون فيه كلّ تلك اللغات.

كانت تفكر بالتسلل إلى كنيسة ما. خمّنت أنه لابدّ أن تكون ثمة كنيسة في بغداد.

تعلّمت أنّ الصمت أكثر أماناً من التكلّم أو محاولة التكلّم، لكنها استطاعت فتح حديث مع الخصي «ميس»؛ فهو من أصل هندي مثلها ويجيد لغتها.

فهمت فرلان من الخصيّ أنّ معظم الخدم الذين يُجلبون من بلدان بعيدة، وهم في عمر يتجاوز الثامنة عشرة يبقون على دينهم سراً، بينما يعلنون إسلامهم شكلياً.

كانت تهفو نفسها إلى زيارة الكنيسة، فلديها أمنية يفترض أن تسمعها السيدة العذراء، كانت فرلان تريد أن تحبل من ذلك الباشا!

شرح لها الخصيّ «ميّس»، كيف أنها إذا نجحت بإنجاب صب-ي

للباشا فإنها ستتحول إلى سيدة مهمة.

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، لأنها ضُبطت متسللةً مع «ميّس» وهي عائدة من زيارتها للكنيسة.

إصرارها على إشعال شمعة التمنّي أمام تمثال السيدة العذراء، غيّر قدَرَها.

قررّ والي بغداد، إرسالها هديّة إلى أحد أصدقائه الأعزاء في دمشق، إنه محمود باشا.

* * *

يعرف حمد الدرويش أن نسليهان كانت تحبّ رؤيته وهو يدور بثوبه الطويل الفضفاض والمعلق في كعب ـي رجليه. تعرف أن كل دورة تستغرق خمساً وعشرين دقيقة، بينما هو يدور على قدمه اليسرى، ويدفع اليمنى على أرضيّة مطليّة بالشمع ليسّهل دورانه. لم تكن تعدّ الدورات، يصعب ذلك على البصر العادي، لكنه يؤكد لها أنه في الدقيقة الواحدة يدور خمسا وأربعين دورة. لم يكن ذلك يدهشها بقدر دهشتها من تمنعه عن لمسها.

عندما رافقته إلى ضريح الشيخ ابن عرب ـي، أو كما كان يحبّ أن يسميه «سلطان العارفين» لم يدرك أنها كانت قد جعلت يوسف يقوم برسم أشعاره على جدار غرفة نومها وفوق رأسها حيث تنام.

لم يخمّن يوسف أن حبيبته رافقت رجلا آخر إلى الجامع السليمي، كما يسمى الجامع الذي يضمّ رفات ابن عرب ـي، وذلك نسبة للسلطان سليم الأول، والبعض يسمّي الجامع نفسه ب «الخنكار» وذلك يعني جامع السلطان.

حكت ليوسف كيف أن السلطان سليم الأول قام ببناء الجامع عندما زار مدينة دمشق، ويروى أنه رأى الشيخ ابن عرب ـي في منام وهو يطلب منه بناء جامع فوق ضريحه. قررّ بعد رؤيته تلك بناء ذلك الجامع.

كان بوسع يوسف اليهودي الذي لم يفكر بزيارة جامع قط تخيّل صحن الجامع وأرضه المرصوفة بالرخام الملون، ورواقه المرفوع على أربع قناطر.

أدهشته الدقة التي وصفت فيها المحراب الخشب ـي، والقبّة المكسوّة بالقيشاني، بحيث سمع صوت الماء المنسكب من

الناعورة الخشبية التي بنيت هناك لترفع الماء من نهر يزيد المتفرع عن نهر بردى.

تخيّل يوسف محبوبته، وهي تنزل الدرجات الحجرية المؤدية إلى الغرفة المقبّبة، التي تحوي ضريح سلطان العارفين.

كان أكثر ما أدهشها وجود قبور أخرى.

تقول له وهي تطبع قبلة متشهيّة على كتفه العاري:

«تخيّل! قبر الأمير عبد القادر الجزائري، وقبر آخر لباشا نسيتُ اسمه، لكنه كان صهراً لحاكم مصر، الخديوي إسماعيل!».

خرج يوسف من غمار فيضٍ من الأسئلة التي كان يطرحها بينه وبين نفسه بشأن حبيبته غريبة الأطوار. يكفي بالنسبة له أن تكون كذلك وهي التي تربّت بكنفِ نساءٍ وصلن دمشق من أنحاء مختلفة من العالم، لكنه لم يفطن قط إلى تأثيرات رجل لم يعرفه أو يسمع به، اسمه حمد الدرويش.

*** * ***

تربصت نساء القصر بالقمر لعمل السحر الذي سيقتل صاحب العطوفة «ناظم بيك».

يكفي امرأةً من طراز «نسليهان» أن تعرف تاريخ ميلادك الدقيق، لتقتلك.

تخيلت ناسلي طويلا السماء البرتقالية لكوكب الزهرة الذي يدور مع عقارب الساعة، أي عكس بقية الكواكب، فتشرق الشمس من غربه وتغرب في شرقه. إذن، توقيت الزهرة كان التوقيت المفضل لدى السَحَرَة، للقتل.

تُطلق بخورها، وتَنطق بعزائمها، وتجهز سحرها، وتجذب الرجل الذي عشقته إلى فراشها.

بينما تترك مصير غريماتها معلقاً بسماء المريخ الحمراء المحملة بالعواصف.

ما من شيء أكيد مما تقوله ناسلي، هكذا بدا الأمر ليوسف، لكن الخطر كان يكمن في حقيقة أنها لم تكن تحكي، كانت تكتب، تفعل ذلك بسلاسة أناملها وهي ترتّب خصلات هاربة من شعرها، يسمعها، فيما كانت تقرأ له:

«عندما وصلت «فرلان» إلى حرملك محمود باشا، كان مليئاً بالسراري.

هنالك «لطيفة» الجارية الأرسية، أي الروسية، التي وصلت عن طريق نخاسي اسطنبول. لطيفة ظلّت السريرة المفضلة للباشا مدة عشر سنوات لكنها لم تنجب.

هنالك أيضاً الجارية الجركسية «نرزان» التي تحمل اسم شلال ماء في موطنها.

وصلت فرلان إلى الحرملك وكانت «نرزان» معزولة في غرفة منزوية من القصر بسبب عدوى أصابتها، لم تُعرف حقيقة مرضها، لكنها فارقت الحياة عقب أسابيع من وصول فرلان.

أما زوجته الشرعية، «زينة الموقرات المصون عايدة خاتون بنت مفخرة الأكابر الآغا الكيخي» لم تكن تحمل من مواصفات الجمال إلا القليل، بعد مرور عشرين عاما على زواجها وفشلها بالإنجاب اتجهت إلى التديّن وزيارة الجوامع والتكايا، وتوفيت وهي في طريقها لتأدية مناسك الحج.

بينما «لطيفة» ماتت في فراشها دون تحديد سبب واضح. سرت بعض الشائعات الهامسة حول تآمر كل من آسيا وبحري مع الجارية الجديدة فرلان للتخلص من لطيفة، المتكبرة».

* * *

كانت نسليهان تردد على مسامع بنات عمها: «ثمة طرق كثيرة لنحظى بما نريد وبمن نهوى ونحب، وذاتها الطرق يمكن استخدامها مع من نكره ونبغض.

الرجل ببساطة يقتل ويستعمل سلاحه وتسيل الدماء، لكن النساء أذكى أو أخبث، لأنهن يقتلن بنظافة، دون دم، دون جِراح، يتسرّب كيدهن كالمياه الجوفية ويعثر على مساربه الخاصة».

لم يقدّر لأحد أن يسمع الحقيقة المنشودة أو الممكنة من فم ناسلي، وهي التي تقول دائماً:

«الكذب أكثر نضارةً من الحقيقة».

روت لنورجيهان كل تفاصيل علاقتها الجنسية بيوسف، ثم نفت كل ذلك بضحكة مجلجلة وهي تتمتم: «ما أجمل الكذب! حقاً لا شيء يبعث على السخرية أكثر من قول الحقائق».

بذات البراءة تقول ليوسف: «ماذا لو نطقتُ بالحقيقة فعلاً؟ فمن عندها سيهبني البراءة في هكذا مدينة، مدينة تعاقبنا على أنوثتنا، على كل ما منحتنا إياه الحياة، لا يمكننا أن نفعل ما نشاء، لكن يمكننا أن نكذب قدر ما نريد، نتخيل».

تسألها نورجيهان بدهشة ممزوجة بالاستهجان: «هل تزعمين أن كل ما رويتِه لي عن مضاجعتك ليوسف كذبة؟!».

تجيب ناسلي المخيفة، بلا اكتراث وهي تأكل الحلوى:

«لم أقتل أحدا، لم أجرح، كل ما في الأمر أني كذبت».

الحقائق تنضب بسرعة، بينما للأكاذيب مخزونٌ لا متناهٍ..

*** * ***

يتكلم الرمل، ويبوح، ويفضح، ويتواطأ، ويتآمر، ويتلصص، ويتنصت.

ليس من الصعب على الحبوبة آسيا أن تحسب في أي برج وأي منزلة يكون القمر، وكان ذلك في الخامس عشر من تشرين الأول اليوم الذي يبرد فيه الزمان، وتكثر الريح ويصرم النخل، وإذا قطع خشب لم ينخر خشبه ولم يسوّس، بدأت آسيا برمي الوَدَع، وقرأت..

ارتبكت آسيا وحنقت وأعماها غضبها وراح الوَدَعُ ينتثر من بين يديها دون أن يشير إلى شيء..

لأنها تعرف أننا عندما نغضب تخوننا الأشياء . أوقفت ضرب الرمل، وراحت آسيا تتربص بالسماء كل ليلة حتى تأتي اللحظة المناسبة لاكتشاف الخطة التي ينبغي تنفيذها.

كان ذلك في الثلاثين من ذات الشهر، اليوم الذي تذهب فيه الحدأ والرخم والخطاطيف إلى الغور ويسكن النمل جوف الأرض.

وكانت الشمس في ساعة المشتري عندما بدأت تتصاعد من غرفة ناسلي رائحة البخور.

قليلون هم أمثال نسليهان، من يمكن لأنفه أن تشمّ خلطةً من روائح البخور، فتميّز العود الهندي والزعفران والجاوي التناصري.

حالما تفوح تلك الخلطة تحزر دادا بحري أن آسيا نَقَشت بقلم

البولاد على خرقةٍ من حرير أخضر، وكتبت عزيمة وشدتها على فخذ نسليهان الأيمن، فلا يعلو صوت على صوتها، وإن شاورت على وحش أتاها ذليلا، وإن وقفت على مكان وقفت عمارة من الجن تأدباً، وإن خاطبتهم خاطبوها، وإن خاطبت إنسانا ذكرا أو أنثى مال إليها.

بعد أربعة عشر يوما زُفَّت «نسليهان» لناظم بيك.

*** * ***

(7)

(هل من عامل أقدر على السفور من أن يدخل الزعيم محفل السيدات المجتمعات لاستقباله، وسابقت يدُه لسانه فيما أراد، فمدَّ يده ضاحكاً ورفع الحجاب عن وجه أقرب السيدات إليه، فكان أن ضحك وكان تصفيق وكان تهليل، وسفرت الحاضرات بعد ذلك التحجب، فكان ذلك اليوم عنوان تحرير المرأة)

عن اليوم الذي عاد فيه الزعيم الوطني سعد زغلول من منفاه

ونزعه الحجاب من على وجوه بعض النساء اللواتي استقبلهن

آنذاك. مي زيادة في مقال لها نشر في صحيفة الأهرام 1919،

ونقلته عنها نظيرة زين الدين في كتابها "السفور والحجاب".

لم تتخفَّ أمام يوسف. تبوح نسليهان بكل شيء، بكل ما كتبته، وبكل ما ستكتبه، غدت تعرف أننا بكتابة تاريخنا الشخصي يمكننا أن نتذكّر كل شيء، أيضاً الكتابة تمكننا من النسيان.

مع يوسف وحده تكون موارد كلامها: «الحقيقة». تبدو منجرفة بكل ما تبوح أو تعترف به، يكتم يوسف كلّ ابتساماته المؤجلة وهي تحكي له عن تجربتها، كساحرة، في ذلك اليوم العجيب عندما أغرم الباشا السبعيني بفتاة بالرابعة عشرة من عمرها، كانت ابنة أحد أعيان دمشق اسمها «دريّة»، وقرر الزواج بها:

«في صباح يوم الثلاثاء وضعت فرلان على رأسي طاقية الإخفاء، وطلبت مني أن أجلب لها بيضة دجاجة سوداء، وبفضول راقبتها وهي تكتب على البيضة ما تضمره، وتقرأ عليها، وتكرر العزيمة سبع مرات، وحفرت الرماد عميقاً، وطمرت البيضة هناك.

في صباح اليوم التالي بدأت مراسم العرس، وحين زُفت الشريفة «دريّة خانم» ووطأت عتبة القصر، استقبلها الباشا مريضاً مصاباً بصداعٍ جعله دائخاً.

يومها تناول المدعوون الغداء، غنوا ورقصوا والتهموا الذبائح التسع، الخرفان التي انتقتها بحري كلها بلون أشقر وساقتها إلى سيدتها فرلان بعد بزوغ كوكب الزهرة بقليل، وفجراً قبل أن تُنحر الخرفان لإعدادها للطبخ كانت فرلان قد مررت أناملها على الجانب

الأيسر من كل خروف وقرأت كلماتها غير المفهومة بصوت منخفض.

في يوم العرس يُطلب الماء كثيراً، فجأة غارت مياه النوافير الثلاث التي في القصر.

كنت كعادتي لصيقة ببحري، وهي تأخذ شقفة نيئة من كبد كل خروف نُحر فجر يوم الزفاف.

راقبت أمي فرلان وهي تحزّ رقبة حمامة سوداء على الجانب الشرقي من كل نافورة، ثم أمسكت قلم البولاد وراحت تنقش شيئاً على كل شقفة من الأكباد التسع، وبدأت برميها في مياه الفسقيات، في هذه الأثناء كانت بحري قد حضرت لحمامنا. ألبستني أجمل الثياب وجدلت شعري وعطرتني وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة.

خرجت فرلان إلى حفلة النساء، وجلست قبالة العروس الخجولة وقد ارتدت فستان فخر الموقرات المرحومة المصون توركان خاتون؛ إنه فستان النيلوفر الملكي الذي كان قد أصبح شهيراً بين سيدات دمشق.

بعد مرور ثلاث ليالٍ خرج الباشا في رحلة صيد للظباء إلى البادية المحيطة بدمشق، عاد خلال أقل من يومين، وقد أصيب بمرض غريب رماه في الفراش.

لم يخفَ على الباشا أن المشكلة هي «فرلان»، في تلك المرة صدّق أنها ساحرة بشكل ما. كان يستعجب من زوجته التي تتقن تسخير القوى اللا مرئية.

أخيراً طلبها إلى مخدعه، وطلب منها ترياقاً.

الدواء لم يكن ترياقاً أو شيئاً يأكله أو يشربه، كان فقط بِساطاً مستطيلاً عليه نقوش غريبة بألوان باهتة بالكاد يُلمح فيها تَناوبٌ جميلٌ بين اللونين الأسود والأصفر.

كان على الباشا أن ينام ويقعد ويأكل ويشرب على ذلك البساط.

بضعة أيام وحسب، وبدأ الباشا يتعافى بشكل ملحوظ، وعاد يقوم برحلات صيد قصيرة، وبات قادراً على التصويب الدقيق مرةً أخرى، ويجالس ضيوفه دون إشارات تعب.

تيقن الباشا أن فرلان التي قامت بشفائه قد تهلكه!

* * *

ما الذي يمنع من أن يباغت المرض فتنة نورجيهان الشابة؟! لم تعثر على ما ينجيها من مشاعرها نحو يوسف.

امتلك طيفه سلطة السطو عليها، استبدّ بها غرامه، بعد أن بسطت ناسلي أمام عينيها كامل روعة العشق، تاقت إلى تلك الحميمية التي حدثتها عنها، أرادت نورجيهان أن تنغمس برقدةٍ أبدية، في منطقة منعزلة، حيث لا توجد إلا الأطياف التي ترغبها، وتريدها أن تتملكها.

نسليهان كانت حاضرة، تحوم حول سرير «نورجيهان» المريضة.

هل خمنت سرّ مرض ابنة عمها؟ أم أنها لم تكن مهتمةً بحقيقة ذلك الطيف الذي شلّها؟

كانت الفتاة تذوي وتذهب صوب الموت، تزامن ذلك مع اقتران شقيقها بابنة عمها.

استدعى ناظم بيك كل الأطباء الأجانب الموجودين في دمشق، كان يحضّر لنقلها إلى اسطنبول عندما استيقظوا صباحاً ووجدوا أنها ميتة!

هل كانت نورجيهان ضحية مجزرة غرور ابنة عمها؟ أين مكان جيهان من حكاية العشق المذهلة التي جمعت ناسلي بيوسف؟ جيهان التي كانت مولعة برجل لا يراها، في خضم الأمل والتردد والخشية، وتناقض لا يمكن حلّه، اعتقدت أنها ستحظى بيوسف على نحوٍ ما، بارتباط شقيقها بنسليهان، بغريمتها التي كانت تعلم أن الشوق نقمة، أكثر منه نعمة، عندما يلفّ الجسد بأصابعه المتوحشة وتعاود ناره الاشتعال توقاً وتشهيّاً وتوحشاً لذات الجسد، لرائحةٍ بعينها، لنكهة لحم يصعب استبدالها. تعلم نسليهان أنها غادرت جسد يوسف ليظلَّ مريضا بها. تعلم أنها أجهزت عليه قبل أن تقترن بناظم.

قبيل يومين من موت جيهان، همست شيئاً بأذن شقيقها.

منذ تلك اللحظة، لم يقرب ناسلي، لم يغامر حتى بالمرور من أمام مخدعها. عن بُعد تراقبه بعينيها الساهمتين، تتربص بشهوته، بتوقه للتأوّه والموت في سريرها، بذلك الوخز المضني أسفل بطنه. انتظرته، سمَّرها التوجس في مكانها، بينما تتنقل «شي شاه»

رشيقةً، ملساء، تتمهل، تتروى، وكأنها تتحرك وفق إيقاعات خفية غير مرئية.. إيقاعات بسيطة، واهية، لكنها لا تتيح لأحدٍ تغييرها.

* * *

متى نلوذ بالكتابة؟ عندما نخشى من الكلام! أم أننا نكتب عندما تخوننا الكلمات، نكتب لأننا نبحث عن نجدةٍ ما؟!

نكتب عندما نخاف أن تُسرق منّا حياتنا أو حتى بعضاً منها، أحياناً، نكتب لنتماوت كثعلب. قد تكون ملجأً سريًّا، مقبرة، مُصلّى، معاهدة ما، اتفاقية، هدنة، أيضا قد تكون حرباً.. تروي نسليهان حكاية أمها مكتوبةً:

«بعد حلول الظلام في إحدى ليالي الخريف أدرْ ظهرك باتجاه الشمس الغاربة وارفع نظرك قليلا باتجاه الشمال وسترى خمس نجوم لامعة، إنها كوكبة نجوم ذات الكرسي. وفرلان كانت تثق بقدرات هذه الكوكبة التي تضم نجماً نابضاً يمتلك أقوى حقلٍ مغناطيسيٍّ في الكون عرفه البشر. لم تكن تمرّر فصل الخريف دون أن تستفيد من إشعاعات تلك الكوكبة، حتى إنها كانت تقول أحياناً لمن قد يزعجها في وقتٍ آخر من السنة، كفصل الربيع مثلا،: «انتظر، سأنتقم منك في الخريف!»

تتلمس ذراعي يوسف العاريتين كمن يبحث عن دعامة ما بينما يتسلق جبلاً، تقول:

«لا شك أني قد ورثت كل عادات أمي الوثنية، فكلما مشطت شعرها في يومٍ مشمسٍ في الخريف، ترمي شعرها المتساقط قرب فمِ بئر. تعتقد أن شعر النساء قرب البئر يتحول إلى حيّة حالما تلمسه الشمس.

كانت فرلان تحرص على أن لا تبصرها «بحري» وهي تمسك الحيّة ولم تزل على قيد الحياة لتقلع نابها قبل أن تموت، ولتزيد من عدد الأنياب التي تحتفظ بها في ثنيات ثيابها. كانت تقول أن ذلك يقوي حواسها ويذكي القلب والبصر. تسلخ جلد الأفعى، وتعدّ النقط على ظهرها لتعرف عمرها، وتشوي لحمها وتأكله؛ فلحم الحيّة أمان من الأمراض الصعبة، ويقوّي الأعصاب، ويُبطئ الشيب، وتضمن أن لا ترمد عينها سنة كاملة بعد أن تأكل لحمها. قضت فرلان طفولتها المبكرة في منزل حاوٍ، كانت عائلتها تربـي الحيّات في قرية هندية يعمل معظم أهلها في صنع الأدوية المستخرجة من السموم، لكن الحريق الذي أتى على القرية بكاملها، تركها يتيمة، ليرحب بها ذلك

الدير الصغير الذي ترعاه بعثة تبشيرية كانت قد قدمت إلى المنطقة منذ عدة عقود».

تصمت نسليهان قليلاً، كما لو أنها تخشى مما كانت تقرؤه. هل كان ما كتبته ليس إلا وشايةً بوالدتها؟ أم اختلاس لحياة أحدٍ مات. أحدٌ لا يريد أن تُهتك أسراره، يريد لكلّ شيء أن يموت معه.

هل كان ما تفعله مصادرة ملكية؟ أم هجمة غير شرعية على حياة والدتها؟! تتلمس أنامل يوسف، تعضّه قليلا، تفرغ توترها بباطن كفه، يتحمل عضّتها وكأنه اعتاد ذلك قبل أن يولد، تكمل نسليهان قراءة ما كتبته:

«ترمي الوَدَع، الحبوبة آسيا، لكنه يصمت، «الرمل لا يتعاون مطلقاً مع الوَدَع». أكّدت آسيا مراراً أنه يحدث للرمال أن تتآمر مع النجوم وتعلن عصياناً خبيثاً لن ينتهي إلا في أوقاتٍ محددة.

باتت فرلان كل يوم ترقب السماء، ولا تحاول مطلقاً استجواب الرمل.

وفي اليوم العشرين من كانون الأول، والذي تموت فيه كل دابة لا عظم لها، دبّ الأرقُ بعيني عروسة الباشا «الشريفة دريّة»، سرعان ما بدأت تعاني من الأرق، لم تكن تنام إلا قليلاً.

أمي التي تدرك أنها جارية، وتلك الفتاة الشابة الصغيرة من أشراف دمشق، أيضا كانت مؤرقة.

كيف لدريّة أن تنام وفرلان حصلت على مشطها، وأخرجت الشعرات العالقة فيه؟

انتظرت وقت حمامها، وحصلت على شعراتٍ بلون كستنائي غامق، وكان الوطواط جاهزاً في قبضة فرلان لتعلق على عنقه الشعرات الكستنائيات، وتتركه يطير في عتمة الليل، ليطير معه النوم من عيني دريّة التي باتت بعينين ذاويتين.

مع مرور أسبوعين أو ثلاث، أصبحت عيناها اللوزيتان محاطتين بهالات سوداء، ووجهها مصفراً ناحلاً، والباشا بالكاد يزورها أو يخاطبها، بينما لا يفارق فرلان.

يتناول فطوره معها، ولا يشرب الماء إلا من بين يديها، ولا يأكل إلا من طبيخها. فما إن عاد إلى فراشها حتى فارقه صداعه، وأصبح بأتمِّ صحة.

نساء عائلة الشريفة دريّة علمن من ثرثرات الناس عن قدرات نساء القصر السحرية. استجارت والدتها بقدرات عرّاف شهير يقطن في جبل أجرد قريب من دمشق. وشيئا فشيئا بدأ يساعدها على النوم، وبدأ يبطل مفعول تمائم فرلان، وأصبحت الشريفة دريّة حريصة خلال تمشيط شعرها، لم تترك شعرةً واحدةً تسقط وراءها.

ضربت الرمل، آسيا. اصطفَّ الودع وأعلن عن الرقم «2»، وهذا الرقم تقرأ فيه آسيا: «النزاع أو الاتحاد، لكن وضع الكواكب باح بأن الوقت للتضاد وليس للتناغم، ذكر وأنثى، وسالب وموجب، خير وشر، فرح وحزن، موت وحياة، غنى وفقر، علم وجهل ...»

هبت ريح الشمال، ومهبها من جهة نجوم بنات نعش إلى مغرب الشمس .. باردةً يابسةً تأتي من ناحية لا ترى الشمس، تعبر الريح منها، وتحملّها البرد، ويرمي بها في نهارات دمشق الشتوية.»

*** * ***

تصمت ناسلي، تابعت عيناها ذلك الارتعاش الخفيف لوجه الموج في الخارج، كانت تتكلم كما لو أن كلّ البشرية تلاشت حولها، باحت بكلّ شرّها الجميل ليوسف:

«أتعلم؟ يمكن لسيف القاتل أن يُرد إلى غمده، لكن عمل السحرة ليس كذلك، الساحر هو الذي يعلم كيف يحوّل خبز الآخرين إلى سمّ. يحاذر الناس من ترك أبوابهم مفتوحة خوفاً من اللصوص، لكن السحرة لا يمكن للأبواب المغلقة أو الحيطان السميكة أن تمنعهم، لماذا؟ لأنهم يعلمون السرّ الذي يمكنه أن يملأ الخانات الشاغرة من القوة، يرسلون شرّهم إلى خبايا ضعفك، أنت تعلم جيداً أن الخير شيءٌ مسفوحٌ على الأرض، عطاء بلا مقابل، منحة مجانية غالباً لا يستحقها أحد، بينما الشرّ الرائع، شرّنا الذي يمتلك تلك الأجنحة الخرافية، يضرب بها بقوة، ويحلّق أبيّاً بين السحب، شرّنا هو الجلاد الذي ينبغي أن يجلس مختبئا بين جوانحنا، ليسبقنا، ويسبق خيرنا ويتقدمه أشواطاً، ليشكل تاريخنا الشخصي المعافى من العطاءات المجانية.»

*** * ***

لكل كوكب طبع، وعمل، ووظيفة، وفق منطق الحبوبة آسيا.

لتضمن غلبة نسليهان على ناظم بيك لجأت إلى كوكب المريخ.

كانت تقول عنه أشياء تبدو أسراراً من كتاب ممنوع تداولّه منذ قرونٍ طويلة:

(هو سيّاف الملك، حار يابس نحس ناري وله القوة والغلبة والنصر على الأعداء وهلاك الخصم)

تضحك ناسلي، بينما يقول يوسف في لحظة يتواطأ فيها مع آسيا: «جميل هذا الكلام، وإلا كيف يمكننا أن نشنّ حرباً دون أن نؤمن بشيء خرافي وغير منطقي، أن نثق على نحو مجنون بكتلة صخرية معلّقة في السماء؟! في كلّ الكتب الممنوع تداولها، أسرار، عن طبائع الكواكب، خذي مثلا كوكب زحل، إنه كوكب الشر العظيم، لا يمكن لكوكبٍ أن يتباهى بقدراتٍ مخيفة أكبر من كوكب زحل في البغض والمفاسد وجلب الأمراض المؤذية، بينما تلك القوى الخفية التي يرسلها كوكب المريخ، ويلتقطها السحرة، عبر معادلات قوامها الحروف والأرقام والأشكال، تعتبر وصفة لإرسال الكوابيس، والمرض، والحزن».

تنفض ناسلي رأسها كمن لا يريد أن يكون عارفاً لشيء، تضيف بحسم من يعرف شيئاً لا مناصَ من تغييره:

تماماً كما فعلت أمي فرلان مع الشريفة بنت الأكابر «دريّة»، هل حقاً نفعت تلك الشعوذات بنزع «دريّة» من القصر؟

قبل مرور شهرين على اقتران أب-ي بعروسه، كان قد انتهى كل شيء، الأهل طالبوا بمسكنٍ آخر لابنتهم، وافق الباشا، لكنهم لم يلبثوا أن طالبوه بتطليق ابنتهم بعد أن اكتشفوا أنها لم تزل عذراء!

تضحك ناسلي، اعتقدوا أن هنالك من قام بربطه عن ابنتهم.

*** * ***

هل حقاً أن ناسلي كانت تؤمن بما يمكن أن يفعله السحرة؟ عندما كانت تسألها نورجيهان عن ذلك، تجيب ناسلي: «إذن لماذا يخشاه البشر؟!، لماذا تحرّمه شريعتنا؟! لماذا يُعاقب السحرة؟! لو كانوا غير مؤذين حقاً؟!»

تسألها نورجيهان بإلحاح مرة أخرى: «هل حقاً أنك تتقنين فنون السحر؟!»

تضحك ناسلي بينما «شي شاه» تتفلّت من بين ذراعيها، كأن

الهواء يحتشد بكائنات لا مرئية، القطط تبصرها وتسخر من عيون البشر التي لا ترى أنه هنالك أرضٌ وسماءٌ أخرى.

تجيب ناسلي ابنة عمّها بلهجة من يعرف كل شيء، وبنفس الوقت يشكّ في كل شيء:

«ألم أقل لك إني أحبّ الأكاذيب؟ لا تصدقي كل ما أقول، أحبّ الكذب أكثر من السحر!»

هكذا ظل حال نورجيهان مع ابنة عمّها حتى اللحظة الأخيرة في حياتها، عندما أيقنت أن ناسلي لم تكن تتفوّه إلا بالحقيقة، عندها ماتت نورجيهان، لتعيش ناسلي بعد ذلك طويلاً.

*** * ***

المقبرة، مكان اخترعه البشر مرغمين، يخافونه ويزورونه حزانى، إلا نساء قصر محمود باشا.

كان طلب الحبوبة آسيا «لوح الكتف» من رجل مات في يوم الثلاثاء.

ارتدين ثياب الرجال، ودخلن المقبرة ليلة ثلاثاء، في النصف الأخير للشهر القمري، في ساعة زحل التي توافق عادة الساعة الحادية عشرة. حملت نسليهان الرفش دون خوف ودون أن تتعثر بشيء. مضت وراء بحري التي تنوء بحمل المياه اللازمة لتسويّة القبر بعد نبشه، وآسيا كانت تبحث عن القبر الذي عاينته خلال النهار وحفظت مكانه. كانت ليلةً ربيعيةً جافةً تلت يوماً ممطراً. يُسمع فقط الصوتُ الخافت العميق الذي كان لخطواتهن التي تدوس العشب الفتيّ، والأقحوان الأبيض النائم.

رائحة تلك الليلة كانت نديّة، تحمل شتى روائح النباتات التي تُنبتها الأرض في ذلك الوقت، مختلطةً بروائح روث الماشية، حتى جاءت تلك اللحظة التي بدأت فيها ناسلي تعميق غور القبر، فاحت رائحة غريبة، رائحة باردة يابسة، تراب ناشف خفيف بدأ يتطاير في أثير تلك الليلة الظلماء.

يُسمع ذلك الصوت الخافت لِما يشبه تكسّر شيء رقيق، كان صوتاً أحدثته عظام ذلك الميت قبل عدة سنوات، والذي راحت تعرّيه أنامل امرأة ناقمة، تجرّده من ترابه، تنفض عنه عفن الأعماق والزمن، تخلّصه من عتمتهِ الأزلية، لأجل صنع الأذيّة بطريقة محترفة.

لم يدم الأمر أكثر من بِضع دقائق، حتى عادت بحري إلى ردم القبر، وتسويّة التراب بهمّة عجيبة، وخلال ساعة عاد كامل التراب إلى موضعه، وسوّت الحجيرات القليلة التي كانت تؤطره.

تأكدت آسيا من رشّ الماء على القبر، رغم قناعتها بأن الفجر القريب محملٌ بالمطر، وهي التي لا تخطئ بتنبؤاتها بشأن الطقس، لكنها أرادت تسوية القبر المهتوك قدر إمكانها في حال لم تمطر. رغم أن المقابر لا تحظى بزوارٍ دائمين، يكاد لا يمرّ عليها أحدٌ إلا في الأعياد، لكنهم الرعاة وحدهم من يمرون قريباً منها وهم يقودون مواشيهم إلى المراعي.

كتبت ناسلي شيئاً ذات يوم، لم تقرأه ليوسف كما اعتادت: «يفترض أن يكون النظام سيّداً، وإلهاً، قربانه «الالتزام». أن ننظم ابتسامتنا، وخطواتنا، وقهوتنا، ونومنا، واستيقاظنا، صدقنا، وكذبنا، وفاءنا وخيانتنا، حبّنا وكرهنا، شغفنا وتقززنا، كل ذلك يجب أن ينشر صيتنا: كبشر لا ينهكنا شيء».

عندما كتبت ذلك لا بد أنها كانت تتذكر تلك الليلة الغريبة في المقبرة.

قبيل مغادرة المقبرة طلبت بحري منها الوقوف شرقي القبر، وأعطتها مسلّة حديد، لا يتجاوز طولها الأصبع، ثبتت بين يديها العظم بعد أن نظفته تماما من التراب، وطلبت منها أن تنقش الأحرف التي تكوّن اسم ناظم واسم والدته بشكلٍ منفصلٍ ومتعاكس على العظم.

فعلت ناسلي ذلك بأصابع ترتجف من البرد.

حين انتهت من النقش وتمعّنت فيه بحري، وتلمّسته مراراً، خرجن من المقبرة.

مع هبوب الريح الشمالية الباردة فجراً كانت بحري قد علّقت العظم للريح في سلة من عيدان رمان حامض، وأطلقت بخورا مخلوطاً من حصى البان والسندروس والمقل الأزرق والميعة السايلة والناشفة والصندل الأحمر، وقامت بدعوة ذوي (الأرواح الروحانية والأشخاص الجوهرية الملكوتية، المستخرجين من طبائع الحروف النورانية والأسماء العجمية والكلمات الربانية والطلاسم العبرانية والأعداد الفارسية والأحرف الظلمانية والأشكال النيرانية والهوائية والمائية والتسابيح اليونانية والعزايم المكتوبة) ودعت (المتوكلين بالأفلاك السبع والأيام السبع والاثني عشر شهراً

والدقائق والدهور والأزمنة..) (أهيا شراهيا أدوناى أصباؤت آل شداى ودعت راج ورياح وكوش ..)

لسبع مرات عزمت بحري على لوح كتف ميّت الثلاثاء، ثم أخذت اللوح، وخَرَقته من رأسه وجعلت فيه فتلة حرير حمراء، كانت قد انتزعتها من رداء لناظم بيك. جعلتها خارجة من اللوح مقدار ذراع، ثم دفنت اللوح في ماء يجري إلى الشرق.

اطمأنت الحبوبة آسيا لعملها ذاك.

تعلم أنّ قوانا الشريرة القاتلة، أهم بكثير من الخير المحتمل وجوده على هذه الأرض.

*** * ***

عندما كانت نسليهان تقود سيارة الدودج عقب وفاة أبيها، كأنها كانت تفعل ذلك لتمنح حزنها فرصة للتدفق ليُفسح المجال لشيء فَرِحٍ في حياتها. كانت تعلم أنها ظلّت دون أيّة حماية، تعي بحدّة أن قواها وخبرتها وشرّها أشياء يمكن أن تنقذها حقاً مما قد يحدث. بدافع الكبرياء، قررتْ أن تنفذ خطة تعريّها أمام ناظم، تعلم أنه شريكها بالورثة، وهي ابنة الجارية، حيث لا أخوال ولا أي سند عائلي. كان عليها أن تنقذ نفسها وكبرياءها وحضورها وأحلامها، كان ذلك كفيلاً بإيقاظ الذكاء الهاجع في عقلها. مشت نسليهان متتبعة الخطى اللا مرئية للأحلام الأكثر خفاءً وسريّةً، مشت وراء حلمها الكبير بالاستئثار بالرجل الذي تحبه، بالحياة التي تريد أن تحياها.

ما أكثر الطرق!

تلك الطرق التي تفرض علينا أن نسلكها دون أية رغبة، لكننا نعبرها لأنها قد تقودنا إلى تلك الطرق المحايدة والبريئة، لنبلغ أخيراً طرقنا «الحميمية» التي تحصننا من المزيد من الطرق الأخرى التي قد لا تغوينا.

كم هي كثيرةٌ الأشياء التي يمكن للرمل أن يقولها، الرمل الذي تضربه آسيا، الرمل الذي يمتلك العيون ويسترق السمع، يستدير نحو الغيب الذي لا شكلَ له.

*** * ***

لم يكن هناك خطأ، لم يكن كابوساً، كل شيءٍ كان حقيقياً، تلمّست الخشب الأملس للتابوت الملمّع والمدهون جيداً، لابدّ أنها

دادا «ريّة»، قهرمانة نورجيهان الوفية، هي من رتبته ونظفته ونقلته إلى غرفتها.

حدث ذلك عقب دفن نورجيهان بأسبوعٍ فقط.

شعرت ناسلي أنها مجرّدةٌ من أيّة كفاءة، خذلها فيضٌ من العفاريت كانت تعاونها في العادة، ذلك الجزء المغرور فيها، أنفها المشمور إلى الأعلى، مثل جنّيٍ محاصر، مطلوب منه الإفصاح عن هويته الحقيقية.

لأوّل مرّة تتفكّر بكلّ تلك الجينات العرقية المتنوعة التي تضجّ بجسدها، والتي شكلّت ملامح وجهها الأخاذة.

باغتتها حقيقة مرّة مثل حيّة تنسلُّ فجأةً بين العشب: ناظم بيك يهددها، ربما يتوعدها، ناظم اكتشف كل شيء أو ربما بعضاً من شيء، يكفي أن يعرف نُتَفاً من تلك الأشياء التي عرفتها نورجيهان جيداً، هي بنفسها باحت بها بكل ما أمكنها من تبجُّح، دون أية رحمة عبثت بمصيرها، شقت ذلك الصدع الأليم في حياة ابنة عمها وهي تروي عن الحرارة التي تشعر بها بينما يوسف يقبل شحمة أذنها، فيما جسده يسحقها، وكيف تندفع لتقبيله بجنون عندما تقترب تلك اللحظة الرائعة الفذة!

لكن أيّ هجوم مفاجئ ذاك؟!

ذلك التغيير المباغت جعلها عاجزة، فاجرة ودنسة، لم يفتها أنها كانت تعاني من يأسٍ طفولي تكرهه، مع سؤال شرس وفتّاك حول ما كان قد علمه ناظم عن علاقتها السالفة بيوسف، كلّ الإجابات التي كانت تدور في دماغها لم تكن تقبل الصياغة على نحوٍ واضح.

* * *

تشع بحسنها اللا مبالي، نسليهان التي نهضت في ذلك الصباح لتجد نفسها وقد قضت ليلتها في تابوت. لم تكن دعابةً من ناظم بيك، علمت أنه يخطط لشيء.

طرقت باب القصر في وقت مبكر، فتحت لها الحبوبة آسيا التي تنهض باكراً لأجل صلاتها.

هرعت صوب غرفتها، أول شيء رأته كان صورتها، تلك الصورة قبل أكثر من خمس سنوات، قبل أن يمزق ناظم بيك ثوب النيلوفر

الملكي.

في الصورة نعثر على كل ما نرميه من ملامحنا مع مرور الوقت، أو ما نضيّعه.

كانت مثل قائد اعتاد النصر في جميع المعارك التي خاضها في حياته، لكنه تقهقر داخل قلعته خوفاً من هزيمة لم يحسب حسابها.

خافت نسليهان، في لحظة شهدت النموّ الخارق لهلعها، لأول مرة منذ عدة سنوات تتسربل بالملاءة، أسدلت خماراً وخرجت.

تتمشّى الهرة «شي شاه»، تتظاهر باللا مبالاة، بينما تلمح فأراً لائذاً بجحره، تتجاهله، تُمعن بتحركاتها اللا منتظمة، تمارس موهبتها تلك بوصفها اللعبة الأفضل والأنبل.

أين ذهبت؟ ومن قصدت؟ لا أحد يعرف!

هي التي باحت ليوسف عن تعلقها بالجامع الأموي ذات يوم، وأنها تزوره بين وقتٍ وآخر.

وحده يوسف يعلم حجم حبها لتاريخ الأشياء والأمكنة، سمعها ذات يوم وهي تتحدث بعينين ساهمتين تنظران إلى البعيد:

«أثناء بناء الجامع وجد البناؤون كهفاً في أساسات البناء، فأسرعوا بإبلاغ الوليد ليرى ذلك، نزل الخليفة ليلاً إلى ذلك الكهف، وأطلعوه على مصلى كنيسة في غاية الجمال، وفيه خبيئة خرافية، صندوق يحتوي على سلّة كتب عليها: (هذا رأس يوحنا ابن النبـي زكريا)، قيل إن ذلك الرأس بدا كأنَّ الزمان لم يمر عليه، لم يتفسَّخ، كان بشعره ولحمه. أمَرَ الوليد بدفن السلّة تحت أحد الأعمدة ضمن الحرم، وبناء ضريح للقديس يوحنا بالقرب منه.»

في ذلك اليوم هل خطر لنسليهان أن تلوذ بذلك المكان الذي كان معبداً لجوبيتر ثم كنسية ثم جامعاً؟ هناك حيث العناكب لا تنسج أبداً بيوتها داخل حرمه، ولا تبني طيور الخطاف أعشاشها في سقوفه.

هل حقًا أنها رافقت حمد الدرويش إلى كهف الدم، حيث يروى أن فيه قتل قابيل أخاه هابيل؟! لعل حمد الدرويش كان آخر من حظي بثقتها! ماذا عن يوسف؟!

*** * ***

كان كل شيء مهيأ، مرتباً، ملفقاً، فعلها ناظم بيك، حضّر كل الشهود الذين تلزم شهادتهم لإدانتها.

كانت تكفي شهادة دادا ربّة التي سبق وأن رأتها في مشهد غرامٍ ومضاجعة مع يوسف. أيضاً ذلك الطبيب الفرنسي الذي كان يُجري عمليات رتق العذرية لم يسأله أحد متى زارته بنت الباشا. لم يأتِ ناظم بيك على ذكر اسم يوسف ولا مرة واحدة. رفض أن يكون الزوج المخدوع، رفض أن لا يكون مفضَّلاً أو رجلاً واحداً في حياة ناسلي بنت الباشا.

جلب الشهود الذين سيؤكدون حقيقة إشراكها، جعلهم يتكلمون أمام أشهر أئمة دمشق.

زارت الكنائس السبعة عشر في دمشق، رآها البعض تدخل كنيسة القديس بولس، وآخرون قالوا إنها كانت تزور إحدى الكاتدرائيات الموجودة في باب توما بانتظام.

شخصٌ آخر شهد عليها أنه رآها تزور الكاتدرائية المريمية الكائنة في شارع الباب الشرقي بشارع الكنيسة بين طالع الفضة وشارع المنكنة.

وحده يوسف كان يعرف أن سرّ إعجاب نسليهان بتلك الكنيسة هو تاريخها.

كانت معجبةً بصمود تلك الكنيسة التي أنشئت في الفترة البيزنطية، هدمها تيمورلنك وأعيد بناؤها، وتأثرت بزلزالٍ ضرب دمشق في القرن السادس عشر، وأحرقت في أحداث 1860، في تلك الفتنة التي حدثت بين الإسلام والمسيحية. كانت نسليهان تحب تلك الأبنية التي ترمم وتعمر من جديد، لم تكن تؤمن بالخراب النهائي.

شهدت إحدى بنات عمّها أنها سمعت منها حديثها عن التشابه بين الأديان، سمعتها وهي تردد عبارات جاءت في التوراة: «اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا، إله واحد»، والكلمات العشر التي أعطاها الله للنبـي موسى الكليم على الجبل في سيناء، أولها أن: «الله وحده خالق الكون، واعبده ولا تعبد سواه، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً، ولا صورة»، كانت تقول لبنات عمّها: «الأديان واحدة، جميعهم يعبدون إلهاً واحداً، لمَ الاختلاف إذن، لماذا تحدث فتنة بين وقتٍ وآخر، ويبدأ المؤمنون من كل الأطراف بقتل بعضهم؟!».

شهدت ابنة عمها تلك أيضا على أنها شاهدت في غرفة نوم

نسليهان: «كتابيّ التوراة والإنجيل إلى جوار القرآن الكريم!». بينما كانت تردد على مسامعهن أنها لا تجد فرقاً بين الأديان، كلّ الأنبياء بشّروا بما ينفع البشر، بما ينشر العدل والسلام، وأعلنوا وصاياهم: «لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد شهادة زور، لا تحسد». اتهموها بالإشراك، وآخرون نعتوها بالكافرة».

شهد أحد رعاة الماشية أنه شاهد ذات ليلة معتمة ثلاثة أجساد تتحرك في الظلام، خرجت من المقبرة واتجهت صوب القصر، أكدوا أنّ تلك الأجساد الغريبة ولجت بوابة قصر محمود باشا.

روت دادا ربّة كل ما تعرفه عن بحري التي تعبد الحيّات والأفاعي، ودلتّهم على ذلك الركن السريّ في أحد أقبية القصر حيث رسمت دادا بحري حيّاتها المقدسات. وشهدت على أنّ الحبّوبة آسيّا تصلّي صلاة غريبة تتفوّه خلالها بكلامٍ غير مفهوم أبداً.

حكتْ لهم كيف أنّ ناسلي استدرجت المرحومة نورجيهان للعب القمار، لتكسب منها كل ثيابها الفاخرة.

يومها، سُجنت في غرفتها، معها دادا بحري والحبوبة آسيا.

أمَرَ ناظم بأن تُخرج كل محتويات خزانتها. الجميع كان يعلم أن تلك الخزانة تحتوي تاريخاً نسائياً حافلاً.

فقد ورثت خزانة فخر الموقرات خاتون توركان كاملةً، كل تلك الملابس التي اشترتها من متاجر حي «سان جيرمان دي بريه» عندما رافقت بعض سيدات من بلاط السلطان في رحلة إلى باريس، وصُرف على تلك الرحلة من الخزانة الملكية في عام 1870. عدد كبير من معاطف الكشمير الهندي الأبيض المبطنة بالحرير، والمزدانة ببكل وأزرار من الألماس، فساتين فضفاضة موديل»المملوك»، وهي طويلة ومربوطة في ستة أنحاء بأساور من الأشرطة.

ثياب من الساتان المطرّزة بأنامل توركان ذاتها، فالأقمشة كانت تصل كهدايا، دون تطريز، وعلى صاحبة الثوب أن تطرّز ثوبها بنفسها. القماش لا يُصبح فستاناً دون الحواشي المطرزة والمزخرفة بالسنابل وأوراق الدوالي والزهور.

عدد هائل من الشالات: مثلثة ومستطيلة ومربعة وكبيرة وصغيرة، أجملها تلك الشالات القرمزية المذهبة والمستوردة من سميرنا الروسية، والشالات الحريرية ثنائية اللون، يكون أحد وجهيها أخضر زمردي بينما الوجه الآخر لؤلؤي، كانت من شالات أزمير،

كسبتها نسليهان في إحدى لعبها العابثة مع ابنة عمها الراحلة، أيضا، شالات من الأورغانزا ومن التفتا المحاطة بالأهداب أو الدانتيلات المخرمة والمذهبة.

في كومة عظيمة، تكدس عدد كبير من تلك الألبسة المخصصة للأجزاء العلوية من الجسد وتسمى «الدويت» مزينة بالمخمل والأطلس، ظهرها مزموم ومزين بالدانتيل، ارتدتها نسليهان بفخر وهي تقود سيارة الدودج، وتلك القفازات الطويلة التي تتجاوز المرفق، معظمها مصنوع من جلود الظباء أو من الحرير المزين بالدانتيل. أيضا هنالك القفازات التي لا تتعدى المعصم مصنوعة من جلد الجدي الأبيض. وهنالك تشكيلة كبيرة من المراوح، مقابضها مصنوعة من العاج أو قرون الحيوانات المحفورة والمطعمة بالذهب والفضة. القفازات التي سادت في خمسينيَّات القرن الثامن عشر التي تسمى «ماير»، اسم الفرنسي الذي كان يصنعها، تنتهي بأزرار من المرجان واللؤلؤ، تعود للمصونة توركان خاتون.

منذ أن شرع ناظم بيك بتمثيليته تلك، صمتت نسليهان، طفت على وجهها ملامح واجمة مع نظرة شخص يدهشه مجرمٌ تحول إلى قاضٍ يحاسب ويصدر أحكامه بكل ثقة. فشل في إخفاء اضطرابه الغيور والناقم، استسلم أخيراً لرغبته الكبيرة في إطفاء ذلك الضوء المنبثق من عيني بنت الباشا.

أُضرمت النار بكل محتويات خزائنها، بتلك الكتب الكثيرة التي كانت تصطف في الخرستانات.

لم تُذلّها تلك الشبهات بقدر ما أضنتها رؤية النار تأكل تشكيلة من العصيّ التي كان يحملها الباشا، أغلى أنواع الخشب، مع تنوع القبضات بين تلك المصنوعة من العاج وتلك المشغولة من الذهب. لم يعد بإمكانها تلمس تلك القبضات الخشبية التي تحمل آثار كفّ الباشا.

انزاحت كل حياتها.

لم تكن تخشى الموت، الحبوبة آسيا، تعتقد أن الموت ارتحالٌ غامض، انتقال من حالٍ إلى حال.

روت آسيا مراراً كيف تزوجت بمن تحبّه. كان رجل دين، كان أرملاً وهي أيضاً كانت كذلك، لكن ثمة حائل غريب بالنسبة لها: ففي دينهم كان يفترض بالشماس ألا يتزوج إلا بمن كانت بكراً، فإذا تزوج ثيباً سقطت مرتبته الدينية إلا إذا تعمد هو وزوجته ثلاثمئة وستون

مرةً في مياه نهر جارٍ.

تعلم نسليهان أن دادا بحري لن تخشى الموت، هي التي كانت تخافه عندما كانت تخدم»الماي» أي سلطان أو ملك، لكن سلطان مملكة برنو الإفريقية كان يلقب بالشيخ أمام العرب، ليتخذ لنفسه طابعاً روحياً، ولينشر حوله هالة دينية كي يحوز على دعم العرب، ويضمن حكم شعب يتكون غالبيته من الوثنيين.

كانت ضمن الحريم اللواتي كنَّ يتظاهرن بالإسلام حتى لا يخطر في بال الملك أن يفعل مثل بقية ملوك إفريقيا.

وماذا كان يفعل الملوك؟

عند وفاة الملك يعطى السمّ بواسطة بيض الببغاء لأربع من نسائه، أو أن تقوم الأرفع شأناً بين نساء الملك المتوفى وابنه البكر بتناول ذلك السم.

في تلك الليلة هل خشيت دادا بحري النار؟ النار التي أضرمها ناظم بيك بغرفة نسليهان، وأوصدها بكل ما أوتي من إصرار، أم إنها تضرعت لربتها الحيّة الصغيرة التي كانت تخبئها بين أغراضها، هي دادا بحري التي عاشت في بلاط ملك عندما اعتنق الإسلام، منع تقديم الأطفال إلى الحيّات المقدسة.

لكن ذلك ظلّ يحدث سرّاً، كان الطفل يوضع أمام الحيّة دون أن يخاف من أذيتها. يتمّ ذلك في معبد بعمق الغابة. روت دادا بحري لنسليهان عن الكاهنة الكبرى:

«كانت أمي كاهنة الربّة الأفعى، كاهنة بين أناس يؤمنون بأن تلك الحيّات ليست خطرة وتقوم بحمايتهم وتهاجم أعداءهم. وإذا ماتت علينا الاحتفاظ برأسها وتجفيفه وتعليقه حيث نعيش. وإذا ما قتلناها، أو قتلها أحدنا عمداً أو دون قصد، علينا أن نعتذر ونحاكم القاتل ونبرحه ضرباً بحضور الأفعى القتيلة، «ولكن ذلك خداع!»، تقاطعها نسليهان: «والخداع أمرٌ سيئ». تصمت بحري، ثم تقول:

«البشر لا يمكنهم الحياة دون اللجوء إلى الخداع، كان يكفي أن تسأل أحداً عن الكائن الذي يرقص له، حتى تعرف من يعبد، ومن خلقه».

حدثتها عن تلك الزنجية الأخرى التي كانت في منزل زبيدة، «كوكه». كانت تنتمي إلى شعب النعامة، ترسم نعامة بعظم وتسكب الدم من أوردتها. تحكي كيف أنه إذا ما قتل أحد أفراد

القبيلة، نعامة، كيف يباشر بالركض بكل قواه، وبين عدّة خطوات يرمي شيئاً من ريش النعامة القتيلة. هكذا يخدعها الصيّاد، يخدع روحها التي تتلهى بأجزاء الريش المتناثرة.

* * *

هل كان جمالها هو الذي أملى عليها مواقفها المتعالية، أم كبرياؤها، أم ذكاؤها؟ وحده يوسف يعرف. كان هناك إلى جوارها يراقب تلك البقعة المضاءة بضوء القمر الذي كان بدراً، تبدو الأمواج مترجرجة، تنبئ عن القلب الضّجِرِ الذي يميّز قلوب البِحار. يلفّها بذراعيه، يحيطها بجسده، هو العاشق الذي يعلم أنه لا يمكننا أن نزاول عشقنا بطريقة جدية ومحسوبة.

لا يمكن مع الحبّ أن يكون كلّ شيء مرتباً، أو صحيحاً، أو نظامياً، أو منطقياً، لأن الحب عكس كل ما هو مقنع أو سليم، الحب هو أن تعلن: «سأكون اللص». لهذا قال يوسف لنسليهان:

«السعادة ليست مرتبطة بمكان، أو بعنوان، أو بكتاب، أو بأرض، السعادة جزء من جسدنا، كيف ننتظر من أحد أن يمنحنا ساقاً أو يداً أو إصبعاً، السعادة هي هنا».

يشير يوسف إلى قلبه، ويتابع: «هنا، إنها هنا، إذا فقدتها هنا، فإني سأخسرها، سأضيعها ولن أعثر عليها مجدداً».

ليس بالإمكان إعادة تشكيل الأمس، لكن يوسف فعل شيئاً إزاء المستقبل، شيئاً قوامه التجاسر على تلك الأشياء الخفيّة في عالم الخوف.

يمكن لبعض العيوب أنّ تميّز بعض البشر وتزرعهم في ذاكرة الناس أكثر من المزايا الحميدة. ربما هنالك عيوب تتميز بفرادتها، عندما تكون جزءاً من تجربة نادرة.

حياة البشر عادةً تنتهي بالموت، وبشاهدة قبر تذكر الاسم وتاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة. منحت ناسلي من حولها معرفة تاريخ ميلادها 1901، بينما شطبت تاريخ رحيلها. اختفت.

حققت نسليهان نجاحاً أخيراً باهراً:

اختفت، لم يفهم أحدٌ يومها كيف أُطفئ الحريق الذي أضرمه ناظم بغرفتها، عندما اجتمع الناس ودخلوا القصر عثروا على جثتين، جسدين لم يحترقا: الحبوبة آسيا، ودادا بحري، ماتتا اختناقاً بسبب

الدخان. لم تزل دهشة اختفاء نسليهان حاضرة. لم يُعثر على أثرٍ لها.

نفَّذت نسليهان هروبها وهي تغني تلك الأغنية التي كانت تغنيها دادا بحري لاستمالة السمك في نهر تورا، ذلك الفرع العذب من نهر بردى، تمدح السمك وتتزلف إليه لتخدعه، ليضلّ وجهته، ويأخذ طريقه إلى الشباك.

ألم تخبرها أمها فرلان كيف أن أفراد عائلتها عندما يخرجون لصيد الأفاعي، يصمتون؟

يخرج الرجال للصيد وتبقى النساء صامتات، لا يتحدثن مطلقاً بأمر الصيد؛ لأن من نريد أن نقتلهم يسمعون أفكارنا ونوايانا على بعد مسافات.

كان عليها أن ترمي عظام السمك في الماء الذي أتى منه، لتخدعه مجدداً، لتصيد المزيد.

في العشرين من شهر شباط لتلك السنة، وفي اليوم الذي يخرج فيه الذئب من وكره، والحيّات تغادر غيرانها، وتتحرك البراغيث، أقعد المرض ناظم بيك في فراشه.. هل سيشفى؟ هل سيكون مهماً أن يُشفى، أو يموت؟!

الاحتمالات ذاتها التي تنطبق على عقاقير المشعوذين، تنطبق على احتمالات القدر!

هل هاجمته تلك المناورة السحرية التي قامت بها نساء قصر محمود باشا؟

أم أنها قوانا الناقمة الحاقدة، شرورنا التي تمتلك قوىً مضاعفة مقارنة بذلك الحيّز الصغير، «الخير»، الذي نزعم امتلاكه بين وقتٍ وآخر، زعمٌ يكلفنا أكثر بكثير من تكلفة اعترافنا بشرورنا، بغرورنا، بأنانيتنا، بحقيقة أننا عندما نحب أنفسنا كثيراً فإن «الآخرين» لن يكونوا إلا بيادق نحركهم وفق أهوائنا ومطامعنا ومكائدنا وأحلامنا ورغباتنا.

ربما يشفى ناظم بيك، لكنّه لن يستطع قط بيع قصر الباشا الذي آل إليه مع باقي ممتلكات عمّه، لماذا؟ بسبب ذلك الشبح الشهير!

قُدِمت للقضاء كلُّ الأوراق اللازمة لإثبات موت نسليهان بنت الباشا، وحصل صاحب العطوفة ناظم بيك على ملكية القصر.

* * *

لم تحظَ ناسلي بحضور المؤتمر النسائي الذي عُقد في صيف 193 على مدرّج جامعة دمشق، حيث تمّ الافتتاح الرسمي في حضور أكثر من ثلاثمئة امرأة طالبن بتعديل قوانين الطلاق، وبمحاربة الجهل، ونزع الحجاب.

منعت إدارة الجامعة السورية المؤتمر من مواصلة جلساته في مدرجها الخاص لأسباب لم تفصح عنها، فانتقل إلى باحة الجامعة.

بالرغم من أن معظم سكان دمشق مهيؤون لانعقاد ذلك المؤتمر الذي حاربت لأجله كل مثقفات دمشق: أوانس وسيدات، لكن أهل دمشق لم يكونوا مهيئين لتخيل ذلك الشبح الذي ذاع صيته، شبح يتجول ليلاً في قصر محمود باشا.

اعتاد أهل دمشق على تلك الأشباح التي تجوب مزارات مدينتهم، وتكاياها، وحماماتها، وأزقتها، وأضرحتها، كشبح ضريح وقبر فروخ شاه، أحد أبناء شقيق صلاح الدين في حي زقاق الصخر، لكن ذلك الشبح الذي يجوب قصر محمود باشا كان أكثر الأشباح غموضاً وجمالاً ورعباً.

تساءلوا: هل كان يريد أن يذكِّر بما حَدَثَ له، وأن يقول لهم أن ما حدث لم يمضِ بعد؟

كثرت التكهنات حول شبح هادئ، صمته ماكر، يتكلم عن كل شيء دون أن ينطق بحرف، لم يكن يُحدث ضجيجاً، بخفة اللصوص يفتح البوابات دون مفاتيح، يشرع مصاريع النوافذ لتهوية القصر، بخفة دمية من حرير، وبرشاقة قطط منتصف الليل، يتنقل بين باحات القصر وصالاته وقناطره، يتجول بحريّة، بينما يتحدثون عنه بأصوات خافتة، بخشية.

كان خوفهم منه هو حجّة سلطانه عليهم.

ذلك الشبح هل هو دخيل، أم وريث؟ خيّر أم شرير؟ أم مجرد كائن كَسَرَ الزمن، وتراءى لهم كظاهرة غير مفهومة.

شبح «دادا بحري» أم «الحبوبة آسيا» أم شبح «نسليهان»؟ لكن هل ماتت نسليهان في تلك الليلة؟ أم أنها مضت منعتقةً من أسوار دمشق؟ أفلتت من كل أولئك العسس الناقمين!

ليس الأموات وحدهم من قد يخلفون وراءهم أشباحهم. الأحياء أيضاً يفعلونها، فالهيبات لا تنتهي بمجرد مغادرة أصحابها أو اختفائهم، إنما تحلّ كحضورٍ يحمل إصرار اللعنات، وجمال البركات، وغموض الأحلام، وبُعد الآمال.

بدت نسليهان مخيفةً لهم، لأنها لم تعرف الخوف من أولئك العاديين الذين لا يجرؤون على إزاحة ستار نافذة خوفاً من ضوء الشمس.

ابتكرت حياةً أخرى، اسماً جديداً، بدأت سيرةً أخرى، بعيداً عن أعين أهل دمشق المرتابين، في ركن مشمس، مضاء، شاسع.

بعيدا عن «الريبة» والظنون والأسرار، عاشت حياةً واضحةً، على أرضٍ يمكن أن تحتمل سعادتها، تتقبلها، كحقّ طبيعيّ لكائنٍ يعرف أنه يعيش «الآن»، ويمكن أن يموت في أية لحظة.

...

يعتقدون أن بنت الباشا غادرت محمولة بأيدي عفاريتها، وآخرون توهموا أن يوسف الساحر قد رسم سفينة سحرية مطلسمة على التراب وأصعدها على متنها، ليختفيا سوية، فمن يفسر اختفاءه هو الآخر؟!

...

...

ذلك الشبح كان بمثابة البقايا الأخيرة من «ناسلي التي هزت دمشق». أبدعت في انتقامها، قررت أن تبقى في كل مكان، شبح يتجول ويفكك تماسك الذين أرادوا وأدها حيّةً، النساء اللواتي أردن أن يشبهنها، فشلن، فأردن قتلها.

شبحٌ أثرى حضوره حقيقة أن صاحبته لم تمت بعد، لم تكن محبوسةً في مقبرة، إنما كانت حرّةً طليقةً في مكانٍ بعيد، اختارته لتعيش الحياة، لتتنفس، لتأكل وتشرب وتلبس دون وصاية تاريخٍ كامل من المقدسات.

سَرَت إشاعاتٌ كثيرة حول المكان الذي فرّت إليه نسليهان عقب تلك الليلة الشهيرة، بعضهم زَعَم أنه رآها في اسطنبول، وآخرون مجانين أكدوا أنهم لمحوها بنيويورك تمثل في مسرحية، البعض قال إنها تعيش في مدينة جنوة الإيطالية، وتدير محلاً

للقماش .

نجحت في أن تمنح لقصة حياتها في دمشق نهايةً هلامية.. ليتسنى لها البدء بحياة أخرى صلبة في مكان لن يخفق بمنحها كرسياً حرّاً في مقهى.

ليس ثمّة غير مسودات لحكايتها. لا صيغة أخيرة لحياتها.

هل ماتت نسليهان في تلك الليلة؟ أم أنها فرّت فعلا؟ لندقّق: عندما نكون حيال أثر خطواتٍ متلاشية مبعثرة في الرمل، يمكننا أن نعثر على خطٍّ ما، مهما كان معقداً وملتفّاً سيرسم درباً ما، منتظماً على نحوٍ ما، ممتداً صوب العمق الذي يكفي ليدلّ على أن ثمة من عبر ذلك الدرب وسلكه حتى نهايته.. نهاية تفلت من كلّ التكهنات المحتملة.. نهاية منفتحة على بداية جديدة تمتلك ذاتها.

.....

..

ربما كان الشبح هو الذي يحرك تلك الأوراق المتناثرة في أنحاء القصر المهجور، أو ربما تفعلها الريح المتسرّبة من مصاريع النوافذ وأسفل البوابات، تزيد ببعثرتها، تفعل ذلك ببراءة، بحيادٍ كامل تتناثر في أرض القصر بضع أوراق يابسة مقطوفة من شجرة تين، إنها أوراق التين المجفَّفة التي جلبها لها يوسف يوماً عقب رحلة قام بها إلى العراق، قَطَفَها لأجلها، من تلك الشجرة الشهيرة التي يتبارك بها الناس في قرية القرنة. القرية الصغيرة التي تتدثر بأشجار البلح والتين والرمان، تتكوّر في النقطة الأعمق من الرأس الذي يشكّله التقاء نهريّ دجلة والفرات، حيث يعتقد سكان المنطقة أن تلك الشجرة من بقايا حدائق عدن.

جلب لها من تلك الأوراق التي يُعتقد أن وريقاتها تلك كانت أوّل لباس لأبوينا آدم وحواء.

ربما بقيت تلك الأوراق الغريبة لتكتمل الغرزَة الأخيرة في حكاية قصرٍ يرفض أن يقبل قاطنين جدد. نعم، تفعلها الجدران.

الجدران، ليست ساكنةً كما يتخيل البعض، لعلّ بعض الدور تخرب وتقبل أن يدمرها زلزال، فقط لتتمرد على ساكن جديد ليس من حقه اجتياز عتباتها. ليست كل العتبات سواء، بعضها ترضخ لأيّ قدم تطؤها، وهنالك عتبات عصيّة، ترفض عبور أحد، فقط لأنها وفيّةٌ لآخرين لا يعرفهم أحد.

تراخى الخيط المنعقد في النهاية ليغادر يوسف مدينته، هو الذي ارتحل أجداده من لشبونة، فروا أيام محاكم التفتيش ليعيشوا بعض الوقت في أزمير، قبل أن يختاروا دمشق كملاذٍ آمن، استثمروا دفء مدينة يلوذ بها الفارون من كلّ بقاع الأرض، أكراد وشركس وأرمن وأتراك، وغيرهم من جنسيات وأعراق مختلفة استطاعت دمشق أن تؤويهم، بنفس الوقت جعلت لبدنها سبع بوابات مترفة باتساعها، تشجع على الفرار في لحظة قدرية عمياء، ألم تفعل ذلك يوم فرّ النب-ي بولس من أحد نوافذها يوم أنزله أصدقاؤه مخبّأً في سلٍّ ليهرب من أعدائه؟

غادر يوسف منزلاً قد يكون هو ذاته المنزل الذي صورّه السير «فريدريك لايتون» لدى زيارته لدمشق عام 1873 في لوحته الشهيرة «قطف الليمون».

تباع المنازل ويتغير مالكوها، لكن قد لا تقبل بعض الجدران تغيير ساكنيها، المالك هو شخصٌ مختلف عن الساكن، لهذا عرف كوكب الأرض الأشباح!

غادرت ناسلي، كمن ابتلع خلطة سحرية: «الاختفاء»، لتتملص من أصابع الحسد الدبقة والمتآمرة، من الأفكار المترهلة، المتقيحة، الكئيبة، عيون يجرحها الضوء، والألوان، والصباح.

فعلت مثل «إيللويا» الأفعى التي تعبدها بحري، خرجت من جلدها، نزعته بهدوء، قشّرته، ثم انسلّت منه في اللحظة المناسبة، أنجزت خروجاً سلساً، محتالاً، بارعاً، بينما تركت شبحها الذي انتزع منهم ما لم يقبلوا أن يمنحوه له، اعترفوا بحضوره، بخوفهم منه، بندرته، باستثنائيته، باستخفافه بهم وبعقولهم وقلوبهم ومنطقهم وتاريخهم وتقاليدهم، بكل ما يعتقدونه صواباً، بكل ما يجلّونه.

أقروا بأنه يتهددهم في كل لحظة، وأنهم يفرون منه، لأنه لا يطالب أحداً ببراءته، فالأشباح بحد ذاتها جرحٌ فريد في مخيّلة البشر الذين لم يحددوا بعد كيف يتعاملون معه: بصفتِهِ حيّاً أم بصفته ميتاً؟ لو كان ميتاً فكيف يُلمح أثره ويحرك الأشياء، والهواجس، والمخاوف، والأحلام؟!

اختفت نسليهان بنت الباشا، تركت شبحها يذرَع القصر في كلّ اتجاه، يلامس كل حجارة دمشق، بوابات بيوتها، نوافذها.. وكلما عبرت المدينة ريحٌ عاتيةٌ قالوا: الشبح نفخها.

المحتويات

بنت الباشا	2
بنت الباشا	4
تنويه	7
إهداء	8
(1)	10
(2)	22
(3)	29
(4)	47
(5)	67
(6)	73
(7)	82